الإنسان قلب ولسان

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

تأليف
نافع بن ثابت الصحفي

تقديم
عبد العظيم إبراهيم المطعني

Ⓒ **نافع بن ثابت عابد الصحفي ، ١٤١٦هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصحفي، نافع ثابت

الإنسان قلب ولسان

... ص، .. سم

ردمك ٩-٩٣٥-٢٧-٩٩٦٠

١- الأخلاق الإسلامية ٢- الفضائل الإسلامية أ- العنوان

ديوي ٢١٢ ١٦/٠٥٠٦

رقم الإيداع: ١٦/٠٥٠٦

ردمك: ٩-٩٣٥-٢٧-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين والتابعين لهم بإحسان ، أما بعد :

لقد أتيح لي أن أقرأ هذه التحفة المسماة «الإنسان قلب ولسان» قبل أن تُطبع فسعدت - حقًّا - بقراءتها ومنذ أسطرها الأولى وقعت في أسرها ، فتابعت القراءة - بنهم - حتى فرغت منها في أربع جلسات ليلية من ليالي هذا البلد الطيب الأمين - مكة المكرمة - ، وهي على صغر حجمها حافلة بالمعلومات والطرائف المأثورة والتوجيهات القيمة ، إنها رسالة لطيفة في أدب النفس وتزكية الخلق والسلوك على هدي من منبعي الهداية الحقة : كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، ومنهاج سلوك خاص وعام للإنسان المسلم ، تقرأها بلا ملل ولا سآمة ، وتشعر بالسهولة واليسر في كل جملة فيها ، بعيدة عن التكلف والتصنع والغموض ، كلماتها حارة دافئة وليدة عاطفة متدفقة بالحيوية والصدق وروح شفيفة تؤمن بما تقول . ويد صناع رسمت حروفًا وكلمات وجملًا تشع نورًا وهداية . لقد أسهم الأستاذ نافع ثابت الصحفي بوضعه لهذه الرسالة في الدعوة إلى الأخلاق الحميدة بنصيب وافر جعلها الله في ميزان حسناته ونفع بها كل من قرأها إنه سميع الدعاء .

بقلم الدكتور

عبد العظيم إبراهيم المطعني - جامعة أم القرى

* * *

المقدمة

الحمد للّه الذي ميز الإنسان بالأصغرين القلب واللسان وفضله على سائر الحيوان بنعمتي المنطق والبيان ورجحه بالعقل الذي وزن به قضايا القياس في أحسن ميزان فأقام على وحدانيته البرهان .

أحمده حمدًا يمدنا بمواد الإحسان ، وأشهد ألا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا .

أما بعد :

فهذا كتاب يضم بين دفتيه معلومات ثقافية تخصك عزيزي القارئ الكريم كإنسان مسلم مؤمن ، معلومات لايستغني عنها قارئ مثقف ، فقد بدأنا في كتابنا هذا بخلق الإنسان ونظرة الماديين إليه ، ونظرة المؤمنين إليه ومنزلته بين الخلائق ثم طبيعته والغاية من خلقه ، وتحدثنا أيضًا فيه عن مراحل الفكر الإنساني وآمال الإنسان والأمل المفقود ، وأخيرًا تحدثنا عن القلب واللسان وذكرنا تحت هذا العنوان خطأ من يقول إن العقل السليم في الجسم السليم – العقل مدار التكليف – أسباب صلاح القلوب – ثمار القلب الصالح – أسباب خبث القلوب – ثمار القلب الخبيث – اللسان بم يستقيم؟ وبم يعوجّ والكلمة الختامية .

هذا واللّه أسأل أن ينفع به العباد ، وصلى اللّه وسلم وبارك على نبينا محمد .

المؤلف

نافع بن ثابت الصحفي

* * *

الإنسان قلب ولسان

الإنسان

خلق الإنسان

نظرة الماديين للإنسان

نظرة المؤمنين للإنسان

منزلة الإنسان - طبيعة الإنسان

غاية الإنسان ومهمته في الحياة

(أ) خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾[1].

قال الرسول ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» - أي في الآية السابقة.

يقول ابن قيم الجوزية في كتابه «الفوائد» صفحة ١٦٨: خلق بدن ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما، فإذا أجاع الإنسان بدنه وأسهره في طاعة اللّٰه وأقامه في الخدمة وجدت روحه خفة وراحة فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه واشتاقت إلى عالمها العلوي - ولعل هذا ما نلحظه في شهر الصوم حيث يجد الإنسان هذا ويشعر به - وإذا أشبعه ونعّمه ونوّمه واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن إلى الموضع الذي خلق منه وهو الأرض فانجذبت الروح معه فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المُعذَّب. ا. هـ.

وقال بعض العلماء: إن الرجل خلق من الأرض فهو يميل إلى الدنيا والتمسك بها، والمرأة خلقت من الرجل فهي تميل إلى الرجل أكثر من ميلها إلى الدنيا، ولهذا من الصعب بمكان أن نطلب من الإنسان ترك الدنيا، فهو مجبول على حبها والتعلق بها ولكننا نطلب منه أن يترك الذنوب فيها مع عيشه في دنياه، ولهذا قال ابن القيم أيضًا في كتابه «الفوائد» صفحة ١٦٩: العارف لا يأمر الناس بترك دنياهم فإنهم لا يقدرون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب فيها مع إقامتهم على دنياهم، فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة، فإن صعب عليهم ترك الذنوب فاجتهد في أن تحبب اللّٰه إليهم بذكر آلائه وأنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته، وإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب عن الإصرار عليها، وقد قال يحيى بن معاذ: طلب العاقل للدنيا خير من ترك الزاهد لها، العاقل يدعو الناس إلى اللّٰه من دنياهم فتسهل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلى اللّٰه بترك الدنيا فتشق عليهم الإجابة.

---

(١) الرحمن: ١٤.

خلق الإنسان عجولًا :

قال تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون** ﴾ [(١)]، ذكر ابن كثير في « تفسيره » ٣/١٨٠ : خلق الإنسان من عجل أي في الأمور فهو عجول ، قال مجاهد : خلق اللّه آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق ، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله قال : يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس ، ويقول ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوًا** ﴾ [(٢)] وقع في نفوس المؤمنين سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك فقال اللّه تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال : ﴿ **سأوريكم آياتي** ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ **فلا تستعجلون** ﴾ اهـ .

فاللّه سبحانه وتعالى له في خلقه شئون ، فهو لم يخلق هذا الكائن الحي أي الإنسان حتى هيأ له ظروف المعيشة والحياة وإلا كيف يعيش ويؤمر بالتكليف ، قال تعالى : ﴿ **فسخر لكم ما في السموات والأرض جميعًا منه** ﴾ [(٣)]، [كان أول المخلوقات القلم - وذلك لحكمة - ليكتب المقادير قبل كونها ، وجعل آدم آخر المخلوقات - في ذلك حكم - أحدها تمهيد الدار قبل الساكن ، الثانية أنه - أي الإنسان - الغاية التي خلق لأجلها ما سواه من السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر ، الثالثة أن أحذق الصناع يختم عمله بأحسنه وغايته كما يبدؤه بأساسه ومبادئه !] [(٤)] اهـ .

(٢) الإنسان عند الماديين :

إنه في نظر الماديين قبضة من تراب هذه الأرض . من الأرض نشأ وعلى الأرض يمشي ، من الأرض يأكل وإلى الأرض يعود !!

هو كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا ، وما العقل والتفكير إلا مادة يفرزها المخ كما تفرز الكبد الصفراء ، أو كما تفرز الكلية البول !

---

(١) الأنبياء : ٣٧ .
(٢) الأنبياء : ٣٦ .
(٣) الجاثية : ١٣ .
(٤) « الفوائد » لابن القيم الجوزية : ٦٤ .

هو كائن ليس له أهمية ولا امتياز على غيره ، إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض ، بل هو من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقرود ، غاية أمره أنه تطور بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسان !!

إنه ليس إلا هذا الهيكل المادي وهذا الجسم الحيواني ، وما قيمة هذا الجسم وهذا الهيكل الذي هو الإنسان ؟

إن أحد العلماء رد جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه فخرج بالنتائج الآتية :

قدر من الدهن يكفي لصنع سبعة قطع من الصابون .

قدر من الكربون يكفي لصنع سبعة أقلام رصاص .

قدر من الفسفور يكفي لصنع رءوس مائة وعشرين عود ثقاب .

قدر من ملح المغنيسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات .

قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه .

قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره .

قدر من الماء يملأ برميلًا سعته عشرة جالونات !

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوي خمسين أو ستين قرشًا مصريًا !! وتلك هي قيمة الإنسان المادية (١) .

(٣) نظرة المؤمنين للإنسان :

أما الإنسان في نظر المؤمنين فهو مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه في أحسن تقويم وصوره فأحسن صورته ، خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته وميزه بالعلم والإرادة ، وجعله خليفته في الأرض ومحور النشاط في الكون ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة لكل ما في الكون له ولخدمته ، أما هو فجعله تعالى لنفسه .

وفي آيات كثيرة من سور شتى بين القرآن قرب الإنسان من الله ، وقرب الله من الإنسان ، ذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان ؛

(١) من كتاب « نظرات في القرآن » للأستاذ محمد الغزالي .

الذين جعلوا من أنفسهم حجَّابًا على أبواب رحمة اللّٰه الواسعة واللّٰه يعلم إنهم كاذبون ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ (١) ، ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه اللّٰه** ﴾ (٢) ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾(٣) ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا** ﴾ (٤) ويؤكد الرسول ﷺ هذا المعنى في أحاديثه عن ربه : « **أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ؛ إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة** » (٥) هذه مكانة الإنسان عند اللّٰه .

أما مكانته هناك في الملأ الأعلى عند العوالم الروحية العلوية فهي مكانة اشرأبت إليها أعناق الملائكة المقربين ، وتطاولت إليها نفوسهم فما أُوتوها ، فإن الذي اختار اللّٰه له هذه المكانة : خلافة اللّٰه في الأرض هو الإنسان : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ (٦) ، وقد أراد اللّٰه أن يكرم هذا النوع ويحتفي به ويظهر مكانته في تلك العوالم الروحية فأمر الملائكة أن تؤدي التحية لهذا الكائن الجديد وتستقبله بانحناءة إجلال وإكبار : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس** ﴾ (٧) .

(٤) منزلة الإنسان :

فالعقيدة الإسلامية قد حددت منزلة الإنسان في هذا الكون منذ قال اللّٰه تعالى

(١) البقرة : ١٨٦ . (٢) البقرة : ١١٥ . (٣) ق : ١٦ . (٤) المجادلة : ٧ .
(٥) رواه البخاري . (٦) البقرة : ٣٠ - ٣٣ . (٧) ص : ٧١ - ٧٤ .

للملائكة : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ كما ذكرنا من قبل فهو نوع منفرد من مخلوقات اللّه ليس بجماد ولا نبات ولا بحيوان ولا بملاك ولا بشيطان ، إنه مخلوق مكرم فريد مسئول لا يقوم وحده في هذا العالم كما زعم بعض الملحدين ، بل يقوم بإرادة رب أوجده وقدره ، إله خلقه في أحسن تقويم وعلمه البيان ووهب له السمع والبصر والفؤاد ، ليس الإنسان عبدًا ولا مقهورًا لشيء في هذا الكون إلا أنه عبد اللّه وحده ، هذا في عقيدة الإسلام ، أما النظرة المادية فلم تنظر للإنسان على أنه مخلوق كريم أوجده خالق عظيم ، كلا بل هو نبات شيطاني برز من العدم إلى الوجود وحده ويمشي وحده ويموت وحده وبموته تختم روايته كلها ، إنه باختصار حيوان ، قد يقال عنه حيوان راق أو حيوان اجتماعي أو حيوان متطور ولكنه على كل حال حيوان ، بيد أنه بواسطة العلم التجريبي استطاع أن يقهر الطبيعة ويسيطر على المادة ، وبذلك العلم أصبح هذا الحيوان المتطور ينظر إلى نفسه وكأنه إله يتصرف في الأرض كما يشاء ويظن أنه قادر عليها ، إن هذه النظرة المادية للإنسان أنتجت شعورين مختلفين ، أولهما : شعور الإنسان بالتفاهة والضياع ، ونظرته إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة ، والثاني : شعور الغرور والكبر ؛ ذلك الشعور الذي ينتهي بالإنسان إلى تأليه نفسه حيث يسقط وجود الإله الحق من اعتباره ، ويتصرف وكأنه إله لا يسأل عما يفعل كما زعم جوليان هكسلي[1] حيث قال : إن الإنسان في العالم الحديث أصبح هو اللّه المنشئ المريد !! ولما بدأ الإنسان في هذا القرن يفيق من سكرة غروره بالتقدم العلمي والانقلاب الصناعي والازدهار المادي بدأ يحس بأزمة نفسه باعتباره إنسانًا متميزًا .

(٥) طبيعة الإنسان :

أما طبيعة الإنسان فهي من أخطر المزالق التي تزل فيها الأقدام ، وتضل فيها الأفهام عند النظر إلى الإنسان ، نظرًا للازدواج والتعقيد في طبيعته التي ركب عليها ، فليس هو شهوة خالصة ولا عقلًا خالصًا ، وليس هو جسمًا محضًا ولا روحًا محضًا ، إن تكوينه يشمل الجانبين معًا ، يقول البروفسور سيشوت العالم الأمريكي والأستاذ بجامعة بيل في كتابة « حياة الروح » : مسألة حيرت ألباب العلماء منذ عصور موغلة في القدم وهي طبيعة

(١) في كتابه : « الإنسان في العالم الحديث » - ترجمة حسن خطاب صفحة ٢٢٤ .

الإنسان المزدوجة الغريبة، فالجانب المادي منه وهو جسده يحيى وينمو ثم يموت، ولكن شيئًا لا تدركه الحواس يبدو أنه يحكم هذا الجسد، وفي مقدور هذا الشيء أن يشعر وأن يفكر، إنه ذلك الجانب الذي تتركز فيه خلاصة كيانه فالإنسان يبدو وكأنه كائنان: كائن مادي وكائن آخر يقابله غير مادي، ترى هل كل منهما حقيقي أو أن أحدهما لا يعدو أن يكون وهمًا من الأوهام!

والضلال والانحراف في فهم الإنسان وتصور حقيقته إنما جاء نتيجة لإهمال أحد هذين العنصرين في كيانه، أو نتيجة للفصل بينهما واعتبار كل منهما منفصلًا عن الآخر، والإسلام قد عرف طبيعة الإنسان حق معرفتها وقدرها حق قدرها لأن الإسلام كلمة اللّه والإنسان خلق اللّه وخالق الشيء وصانعه لا يجهل طبيعته وكنهه: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟**﴾(١)، وقد خلق اللّه هذا الإنسان جسمًا كثيفًا وروحًا شفافًا. جسمًا يشده إلى الأرض وروحًا ليتطلع إلى السماء. جسمًا له دوافعه وشهواته، وروحًا له آفاقه وتطلعاته. جسمًا له مطالب أشبه بمطالب الحيوان، وروحًا له أشواق كأشواق الملائكة، هذه الطبيعة المزدوجة ليست أمرًا طارئًا على الإنسان ولا ثانويًا فيه، بل هي فطرته التي فطره اللّه عليها، وأهّله فيها للخلافة في الأرض منذ خلق آدم خلقًا جمع بين قبضة الطين ونفخة الروح: ﴿**ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون**﴾(٢)، وجاءت عقيدة الإسلام فلم تغفل الروح من أجل الطين ولم تغفل الطين من أجل الروح، بل زاوجت بينهما في وحدة منسقة ملتئمة وأعطت الروح حقها والجسد حقه في غير إفراط ولا تفريط، وعرف التاريخ أديانًا ونحلًا تقوم فلسفتها على إغفال الجانب المادي الجسدي في الإنسان والعمل على تعذيبه وإضعافه لينمو الجانب الروحي فيه ويصفو ويقوى كالبرهمية في الهند والرهبانية المسيحية، وفي مقابل هذا الاتجاه جاء الاتجاه المادي يجحد أن في الإنسان روحًا أو أن في الكون إلهًا، إذ لا يؤمن إلا بما هو مادي تدركه الحواس وتحكمه التجربة، وبهذا عاش

---

(١) الملك: ١٤.

(٢) السجدة ٦ - ٩.

الإنسان عند هؤلاء نصف إنسان بل أدنى، عاش للجزء الحيواني فيه فحسب.

(٦) غاية الإنسان:

وأما غاية الإنسان ومهمته في الحياة فقد بينتها عقيدة الإسلام أوضح البيان فالإنسان لم يخلق عبثًا ولم يترك سدًى، وإنما خلق لغاية وحكمة لم يخلق لنفسه ولم يخلق ليكون عبدًا لعنصر من عناصر الكون، ولم يخلق ليتمتع كما تتمتع الأنعام ولم يخلق ليعيش هذه السنين التي تقصر أو تطول ثم يبلعه التراب ويأكله الدود ويطويه العدم إنه خلق ليعرف اللَّه ويعبده ويكون خليفته في أرضه، خلق ليحمل الأمانة الكبرى في هذه الحياة القصيرة، أمانة التكليف والمسئولية فيصهره الابتلاء وتصقله التكاليف وبذلك ينضج ويعد لحياة أخرى هي حياة الخلود والبقاء والأبد الذي لا ينقطع، إنه لنبأ عظيم حقًّا أن يكون هذا الإنسان لم يخلق لنفسه وإنما خلق لعبادة اللَّه، ولم يخلق لهذه الدنيا الصغيرة الفانية وإنما خلق للحياة الخالدة الباقية، خلق للأبد. يقولون: إن الأحمق يعيش ليأكل والعاقل يأكل ليعيش، فماذا نقول؟ نقول: إن هذا القول لا يحل العقدة: فإن العيش نفسه ليس غاية، فالسؤال لا يزال قائمًا: ولماذا يعيش الإنسان؟

أما الماديون فقالوا: إنه يعيش لنفسه ومتاع دنياه، وأما المؤمنون فقالوا: إنما يعيش لربه الأعلى ولحياته الباقية الأخرى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون؟ فتعالى اللَّه الملك الحق**﴾[1] وما أعظم الفرق بين الذي يعيش لنفسه والذي يعيش لربه، بين من يعيش لدنياه المحدودة ومن يعيش لوجود غير محدود بزمان ولا مكان، إن النظرة المادية الملحدة لم تعرف للإنسان غاية، لأن الغاية تقتضي قصدًا والقصد يقتضي قاصدًا وهي تنكر أن يكون الإنسان قد خلق قصدًا، ولهذا فليس للإنسان في نظرها رسالة غير رسالة الكدح وراء العيش وابتغاء تحسينه، وبعبارة أخرى وراء زينة الحياة الدنيا ومتاعها لا أكثر من ذلك، فإذا فني العمر القصير للإنسان فقد انتهى كل شيء في وجوده وما أصدق قول القرآن: ﴿**قل: متاع الدنيا قليل**﴾[2] وهو ليس متاعًا قليلًا فحسب بل هو أيضًا متاع رخيص، متاع حقير، لأنه متاع حيواني محض سَخِرَ بعض الأدباء من طلابه وعشاقه فقال: (من

---

(١) المؤمنون: ١١٥، ١١٦.
(٢) النساء: ٧٧.

كانت غايته بطنه وفرجه فقيمته ما يخرج منهما) ، وحسبنا قول القرآن الكريم : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾[1] . إن النظرة المادية للإنسان تجعله يدور حول نفسه فقط أي حول هواه وشهواته حول جسده ومتطلباته حول الجزء الحيواني فيه ، وبذلك ينمو ويتضخم الجانب الحيواني المادي في الإنسان على حساب الجوانب الأخرى التي تضمر وتنكمش أو تذبل وتموت ، ونمو الجانب المادي والحيواني في الإنسان بهذه السرعة والضخامة هو نمو خبيث نمو سرطاني يفضي في النهاية إلى هلاك الإنسان كله ، إنه لا بد للإنسان من هدف يتطلع إليه غير نفسه وهواها وإلا فإنه سيظل يدور حولها كالحمار في الرحا أو الثور في الساقية يدور ويدور والمكان الذي انتهى إليه هو الذي بدأ منه ، أو كما قال أحد الكتاب الغربيين في وصف الوجوديين الذين تدور فلسفتهم حول تحقيق الإنسان وجوده وذاته فحسب : إن الوجودي مثله كمثل الكلب الذي يجري دائمًا حول نفسه ليمسك بذنبه فلا هو يدرك ذنبه ولا هو يقف عن الجري وهي لعبة يلعبها الكلاب حينما تجد الفراغ فتلهو بما لا نتيجة له ، وهذا التشبيه يذكرنا بالمثل الذي ضربه القرآن لكل من انسلخ من آيات اللّه وأخلد إلى الأرض واتبع هواه ، قال تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلًا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾[2][3] .

* * *

---

(١) الأعراف : ١٧٥- ١٧٧ .

(٢) « الإيمان والحياة » - الدكتور يوسف القرضاوي ، صفحة ٦٣ - ٨٢ بتصرف .

(٣) محمد : ١٢ .

المراحل الفكرية للإنسان

أخي القارئ الكريم : عند حديثنا عن الإنسان نعني الإنسان المسلم وما ذلك إلا لأنه القائد الحقيقي لكل إنسان غيره ، قائد يقوده إلى الخير ، إن أطاعه فيما يهدي إليه ونقصد أيضًا بالفكر ، ذلك الفكر الذي يقود صاحبه إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، إلا أننا سوف نعرج في بداية حديثنا عن الإنسان الجاهلي وما ذلك إلا لشدة صلة المسلم بهذه الحقبة من الزمن ، ولأن هذا المسلم أصله جاهلي فهداه اللَّه للإسلام كما أضل غيره من المشركين ، فاللَّه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وللَّه في خلقه شئون ، وعلى هذا الأساس تنقسم مراحل الإنسان الفكرية إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : هبوط الفكر الإنساني وتدنيه .

المرحلة الثانية : نشاط الفكر الإنساني ورقيه .

المرحلة الثالثة : كسل الفكر الإنساني واضمحلاله .

مرحلة الانحطاط والتدني:

هذه المرحلة عاشها الإنسان الجاهلي ، عاشها حقبة من الزمن كان فكره فيها متدنيًا منحدرًا ، وما ذلك إلا نتيجة لفقده عنصر القيادة التي تقوده إلى الخير وتمنعه من الشر ، وحسب فكره المنحل اتخذ له إلهًا يعبده من دون اللَّه فنسب الضر والنفع إليه وهو يعلم أن هذا الإله لا يدفع الأذى عن نفسه ، ومما يزيد دلالة على انحطاطه الفكري وتدنيه هو ما يعرف عن بعضهم من أنه يصنع صنمًا من الحلوى فإذا جاع أكله ، فأي فكر هذا الذي قاد صاحبه إلى هذا المستوى من الفكر الإنساني ! ونتيجة لهذا الفكر عاش هذا الإنسان في هذا العصر - أعني العصر الجاهلي - عاش ناسيًا خالقه فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر فكثرت الحروب وكثر السلب والنهب فقل الأمن ، وعاش الإنسان خائفًا ، فمحكمة الغاب تحكمه.

البقاء للأقوى:

وهل بقي الإنسان على هذا المستوى من الفكر ، طبعًا لا ، فمشيئة اللَّه سبحانه وتعالى لم ترد له ذلك حيث تلا هذه المرحلة المرحلة الثانية وهي مرحلة النشاط الفكري ورقيه .

مرحلة النشاط الفكري ورقيه :

من قائد هذا المرحلة ؟ إنه القائد الأول والمعلم الأول والعظيم الأول من عظماء البشر ، إنه محمد ﷺ ، قائد لأنه منفذ لتعاليم ربانية ، منفذ لأمر خالق الخلائق جمعاء معلم ؛ لأنه يتكلم ويعلم بشريعة الله : ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾[1] ، عظيم لأنه قائد الأمة بأخلاقه : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[2] .

فإن مايكل هارث الأمريكي صاحب كتاب « العظماء المئة » ، جعل الأول محمدًا ، فهو لا يستطيع أن يقدم غيره عليه ، فبهذه الأخلاق استطاع الرسول ﷺ وبتوفيق من ربه أن يجمع أممًا متناحرة ويوحد صفوفًا متفرقة ، هدى الله به العباد إلى صراطه المستقيم فأخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، فانتشر الدعاة هنا وهناك يدعون إلى توحيد الله عز وجل ؛ فنشط الفكر الإنساني في هذا العصر - أعني عصر صدر الإسلام - فزانوا المنابر وهزوا أوتار القلوب بالمواعظ تارة وبالشعر تارة أخرى فصدق الرسول ﷺ ، فهو الصادق المصدوق : « **خير الناس قرني ثم الذين يلونهم** »[3] .
حمل لواء النشاط الفكري بعد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وأصحابه رضي الله عنهم ، السلف الصالح من بعدهمَ إلى أن بلغ النشاط الفكري ذروته فأصبح قائدًا للعالم أجمع ، أصبح قائدًا في كل العلوم فكان مصدرًا ومرجعًا أساسيًا لمن أراد أن يقتبس أسمى الحضارات ، فأصبح العالم الإسلامي في هذه المرحلة هو المنبع وهو المرجع وهو القيادة العليا لكل الشعوب ، ونتاج هذا النشاط الفكري واضح للأعيان ، هو ما تراه اليوم في المكتبات ، وهذا الإنتاج الضخم من التراث الفكري الذي يقف الإنسان المعاصر أمامه مذهولًا ، ويسأل الإنسان المعاصر نفسه كيف وصل هؤلاء إلى هذا التراث الفكري العظيم؟ فيبقى حائرًا ، ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان ، نعم لقد وصل هذا النشاط الفكري إلى ذروته والمعجزة أن يحافظ على مكانته ، إلا أن هذه المعجزة لم تتحقق ، وهذا ما نناقشه في المرحلة التالية من مراحل الفكر الإنساني .

---

(١) النجم : ٣ . (٢) القلم : ٤ . (٣) رواه البخاري .

الكسل الفكري:

ولا نستطيع أن نصف هذه المرحلة من مراحل الإنسان بالهبوط الفكري وتدنيه ، لأنه لا يزال يوجد في بعض أفراده بصيص أمل في الحياة والنشاط مرة أخرى ، لقد أخذ النشاط الفكري في الضعف والانحلال إلى أن وصل إلى مرحلة الكسل الفكري ، والكسل في الفكر مثل المرض في الجسم ، ومادام الإنسان مريضًا فلا يستطيع أن يتحمل المسئولية ، وبهذا لا يستطيع أن ينتج ، فتراه قد اكتفى بما يلقى عليه من ثقافات متنوعة فعاد إلى جاهليته الأولى وإلى التقليد الأعمى .

فأخذ يزور القبور ويطلب أهلها الموتى في دفع الشر وطلب الخير بحكم أنهم من الأولياء الصالحين ، ونتيجة لقلة الدعاة ، دعاة الفكر الإسلامي ، كثر السلب والنهب وقل الأمن ، وانتشر الذعر ، وعاد الإنسان إلى الأحكام الجاهلية لفقده وجهله بالأحكام الإلهية فهي التي تسير حياته ، أما الحروب بينهم فحدث ولا حرج ، فقد مزقتهم الحروب شر ممزق مما أطمع فيهم أعداؤهم . في هذه المرحلة أعني مرحلة الكسل الفكري نشط الفكر الغربي والشرقي على السواء ، من أعداء اللّٰه والمسلمين فوجدوها فرصة للانقضاض على الإسلام والمسلمين وهم في كسلهم الفكري هذا وتفككهم الأسري فغزوا ديارهم بالسلاح الناري وسمموا أفكارهم بالغزو الفكري ، والإنسان بالفطرة إذا لم تسيره شريعة ربانية بالفطرة يقلد الأقوى ، ففي هذه المرحلة الأقوى هم الأعداء : أعداء اللّٰه عز وجل وأعداء المسلمين ، فظهر التقليد الأعمى بهم ، يقول ابن خلدون : (ترى المغلوب أبدًا يتشبه بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه وفي سائر أحواله) ويصرح بأن (النفس تنتحل جميع مذاهب الغالب وتتشبه به ، وذلك هو الاقتداء) ويذكر ابن خلدون عدة أدلة مبينًا أثر هذه النزعة النفسية التي تدفع إلى التقليد ومنها :

١- تقليد الأبناء للآباء .

٢- تقليد الناس للحامية - أي أصحاب الرأي من ذوي السلطان .

٣- سراية بعض العادات والأحوال من أمة إلى من يجاورها ويخالطها ، فيقول : (حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري فيهم من هذا التشبه والاقتداء

حظ كبير)[1] اهـ.

ونقول: إن هذا كله لا يتحقق إلا إذا خلا القلب من الإيمان.

عرفت هواها قبل أنَّ أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

إذن هذا التقليد المعيب للغرب أو الشرق وهذه العودة إلى الجاهلية الأولى لم يجدا طريقهما إلى قلب الإنسان المعاصر إلا بعد أن أصبح قلبه خاليًا من تعاليم دينه الحنيف فنسي شريعة اللّه وحكم بغير ما أنزل اللّه: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون**﴾[2]. لقد عاش الإنسان هذه المرحلة أعني مرحلة الكسل الفكري حقبة من الزمن على هذا التقليد الأعمى حتى تأصل فيه وأصبح من الصعب أن يتخلى عنه، وما ذلك إلا لأنه بلغ عنده مبلغ الاعتقاد، ولكن الإيمان لا يعترض طريقه معترض ولا يكبح جماحه كابح، وهذا الإنسان بفكره غير النشط لا يزال من أتباع محمد ﷺ، فهو يعرف اللّه ويعرف محمد ﷺ، فلا تزال في قلبه بذرة الإيمان إلا أنها طمرت فترة من الزمن فهي قابلة للإنبات مرة أخرى إذا وجدت من يعتني بها ويصلح أرضها، يقول محمد قطب في كتابه «مفاهيم ينبغي أن تصحح» صفحة ١٢٧ يقول: (وقال توماس بين المستشرق الأمريكي في مقدمة كتابه - «السيف المقدس» - بعد أن لخص تاريخ المسلمين وانتصاراتهم في آسيا وأفريقيا وأوروبا -: والآن تغير الحال وصار المسلمون في قبضة أيدينا ولكن ما حدث مرة سوف يحدث مرة أخرى وأن الشعلة التي أشعلها محمد ﷺ في أتباعه لهي شعلة غير قابلة للانطفاء) اهـ.

نعم لقد صدق في حدسه هذا، فنور الإيمان لا ينطفئ ما دام مصدره هو خالق النور اللّه عز وجل، والدال عليه رسوله محمد ﷺ، وما تلمسه اليوم لهو خير شاهد على صحة ما قال - خافوا منا ونحن في قبضة أيديهم محتلون فكيف اليوم ونحن نعيش أحرارًا - إن الإنسان المسلم اليوم عاد إلى نشاطه الفكري، وهذا مشاهد ومعروف في الصحوة

(١) «مبادئ علم الاجتماع» للصف الثالث ثانوي قسم العلوم الشرعية والعربية، د. مصطفى محمد حسين وإبراهيم لبيب أحمد و د. سعيد محمود، مراجعة وتعديل علي سعيد وعبد اللّه عبد العزيز السلمان وعبد اللّه محمد المنصور، طبع في عام ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م، صفحة ٣٥ - ٣٦.

(٢) المائدة: ٤٤.

الإسلامية العارمة والتي عمت البلاد الإسلامية شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ، إنها المرحلة التي توحي بالعودة إلى النشاط الفكري السابق ، ولكننا مع هذا كله لا نستطيع أن نصّف هذه المرحلة بالرقي الفكري الذي تحقق في عهد السلف الصالح ، فنحن لا نزال في بداية الطريق ، لكن من سار على الطريق وصل ، والأمة الإسلامية أمة القرآن ، فالقرآن يتلى ليلًا ونهارًا وفي كل منزل ومسجد وفي كل مدرسة وجامعة ، والقرآن الكريم هو الذي يقود الأمة إلى مجدها السابق إن هي حافظت على تلاوته ونفذت تعاليمه وطبقت أحكامه ، نعم هو الطريق إلى النشاط الفكري ورقيه ، وهو الطريق إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، يقول محمد إقبال شاعر الباكستان لحاكم أفغانستان نادر باشا آنذاك : واللّه لن تجد السعادة حتى تقود أفغانستان بهذا القرآن . واعلم أخي القارئ الكريم - يرحمني اللّه وإياك - : أن أعداء اللّه أخوف ما يخافون من القرآن وحملته ، يقول محمد قطب في كتابه « مفاهيم ينبغي أن تصحح » صفحة ١٢٦ يقول : (قال جلادستون رئيس الوزارة البريطانية وقت دخول الإنجليز مصر مشيرًا إلى المصحف يقول : طالما كان هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد) اهـ .

نعم لقد صدق فيما قال ، فقد خرج الإنجليز وهم أذلاء وعادت البلاد إلى أصحاب القرآن وحفظته فالإنسان المسلم مهما بلغ به الفسوق والعصيان إلا أنه يحترم القرآن كقرآن ويعزه ويغار عليه ، بل ويقاتل من أجله .

إنني أهيب بشباب الصحوة اليوم أن ينمّوا من نشاطهم ويواصلوا المسيرة فآمال الأمة لا تتحقق إلا بشبابها النشط المثقف والذين يقولون للصعاب أهلًا وسهلًا .

إن اللّه سبحانه وتعالى تكفل بإظهار دينه ولو كره الكافرون وكل عدو لهذا الدين ، قال تعالى : ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾[(١)] وما علينا نحن إلا العمل والتوكل على اللّه فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأحب أن أهمس في أذن الشباب الملتزم أن يأخذوا بأسلوب اللين والرحمة والشفقة في دعوة غيرهم من إخوانهم في اللّه المقيمين للصلاة المحبين للّه ورسوله ﷺ قال تعالى :

---

(١) التوبة : ٣٣ .

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[1] .

بشروا ولا تنفروا إخوانكم حببوهم إلى أنفسكم فمتى حبوكم استمعوا إليكم ولا يكون ذلك إلا بالتودد والتقرب إليهم والاجتماع بهم .

أيها الشاب الملتزم : إن أخاك مريض بمعاصيه والمريض لا يترك بدون علاج إذ لا يحق لك كمسلم أن تترك مريضًا مرضًا جسديًا يتلوى من المرض دون أن تمد له يد العون وتسعفه ، فالمسلم أخو المسلم ، ولكن مريض القلب أحوج إليك من مريض البدن ولا يتم العلاج إلا بالرحمة والرفق والشفقة .

إن ما نشاهده اليوم ونلمسه من التباعد بين الملتزمين وأصحاب المعاصي لا يساعد على اتساع دائرة الصحوة وهذا التباعد لا يفسر إلا بالكره من الجانبين ، فالملتزم يكره العاصي لمعصية ارتكبها فلا يجلس معه وإن سلم عليه لم يحتضنه ، والعاصي يعامل الملتزم بنفس المعاملة ، وما دامت هذه الحالة فكيف تؤدي الأخوة والدعوة ثمارها ، وهذه الفجوة وهذه الهوة بين الفريقين ؟

* * *

(١) آل عمران : ١٥٩ .

آمال الإنسان

الأمل مفتاح العمل، فلولا الآمال ما اشتغل الإنسان، ولما عاش في هذا الزمن وكل زمان، لكن آمال الإنسان لا تنتهي ولن تنتهي، لا تنتهي حتى بنهاية حياته، يموت وهو غاص بها لم تتحق وإن تحقق بعضها، ولله در الشاعر حيث قال:

صحب الناس قبلنا ذا الزمان ... وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا جميعهم كلهم منه ... وإن سرَّ بعضهم أحيانا

لقد جلست مع نفسي ساعة أفكر، والحسن البصري يقول: تفكير ساعة خير من قيام ليلة، أخذت أفكر لم هؤلاء الناس يتعبون أنفسهم في هذه الحياة؟ فمن خلال أحوالهم وتصرفاتهم والجلوس معهم وسؤالهم عن هذا وجدت الجواب أنهم كانوا يجرون ويتعبون ويشقون طلبًا للراحة النفسية، والحياة الطيبة السعيدة، وهذا مطلب كل إنسان في هذه الحياة، والذي لا يطلب هذا ويسعى من أجله نشك في عقله وتفكيره، من منا لا يريد أن يكون سعيدًا في هذه الحياة مطمئن النفس قرير العين؟ بل الاطمئنان النفسي صفة من صفات المؤمنين، قال تعالى: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾(١)، فقد وجدت هذا يجري ويشقى في سبيل تحقيق أمل واحد، وذلك عندما سألته عن أمله في الحياة قال لي: إن أملي في الحياة أن أحصل على الشهادة الجامعية ثم أبني مستقبلي بنفسي، والثاني يقول: أملي في الحياة أن أكون من أصحاب العقارات وأن أكون تاجرًا لي مكانتي بين الناس، وثالث يقول: أملي في الحياة أن أكون طبيبًا، ورابع وخامس يقول: أملي في الحياة أن أحصل على منصب من المناصب المرموقة، وخامس: أمله في الحياة أن يكون له ولد، كل أصحاب تلك الآمال المختلفة هدفهم واحد السعادة والراحة النفسية والاطمئنان القلبي، وما أن تتحقق آمال هؤلاء جميعًا والتي اعتقدوا أن يجدوا فيها الراحة والاطمئنان والسعادة، إلا أننا نراهم أيضًا يتألمون ويشكون ويتضجرون ثم يبكون ولا يضحكون، أضف إلى ذلك أنهم يعاودون الشقاء والسعي وراء تحقيق آمال أخرى لم تتحقق، وبهذا يعاودون العناء مرة أخرى ويعود إليهم،

---

(١) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

حياة هؤلاء أبو العلاء المعري حيث قال :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

فيا ترى إذا لم تكن الراحة النفسية والاطمئنان القلبي فيما ذكر، ففي أي شيء تكون الراحة النفسية ويكون الاطمئنان القلبي والسعادة في الدنيا والآخرة ؟ !

الأمـل المفقـود :

لقد غفل الإنسان وهو يؤمن بالله ربًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا، لقد غفل عن أمل واحد لو أوقف نفسه في هذه الحياة طلبًا في تحقيقه لشعر بالراحة النفسية والاطمئنان القلبي ولعاش في هذه الحياة حياة طيبة، هل عرفت ما هو؟ إنه رضا الله عز وجل، نعم إنه رضا الله عز وجل، هب أنك موظف قد أخلصت في عملك ثم جاءك رئيسك فشكرك على ذلك، ماذا تقول له؟ إنك تقول له وبملء فيك : لا نريد إلا رضاك، أي أن الذي يهمني هو أن ترضى عني، لم كان هذا الموظف يهتم برضا رئيسه؟ الجواب معروف طلبًا لعلاوة تشجيعية أو لترقية سنوية، إذ الإخلاص في العمل يكسب الرضا، وقد تسأل عزيزي القارئ بما يتحقق هذا الأمل؟ نقول لك : يتحقق بالنسبة لك كمؤمن بكلمة واحدة إلا أنها يشترط فيها أن تحمل الاستمرارية، كلمة واحدة، إنها التقوى، والتقوى تتحقق بأمرين اثنين لا ثالث لهما، التزام ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه حسب الاستطاعة، الاستمرارية من أين أخذناها، أخذناها من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[1] أي أنها تقوى تستمر باستمرار الحياة، وحق تقاته تفسره الآية الأخرى وهي قوله تعالى : ﴿ **اتقوا الله ما استطعتم** ﴾[2]، وقد تسأل من الإنسان الذي يعد نفسه من المتقين وما جزاؤه؟ قال تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾[3] .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ . (٢) التغابن : ١٦ . (٣) آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦ .

عزيزي القارئ الكريم : أظنك تريد أن تكون أحد المساهمين في هذا المشروع الخيري وهو تحقيق رضا اللّٰه عز وجل، إذن كن ممن وصفهم اللّٰه في الآيات الكريمة السابقة، لقد اشتملت هذه الآيات آنفة الذكر على أخلاق فاضلة عظيمة، فلا بد أن يكون أثرها عظيمًا على من يتصف بها، ذلك الأثر الذي تترجمه الراحة النفسية والحياة الطيبة في هذه الدنيا، وأما في الآخرة فجنة عرضها السموات والأرض، ومن هذه الأخلاق الفاضلة التي اشتملت عليها الآيات الإنفاق المتمثل في الكرم السخي أولًا، وثانيًا الحلم، وثالثًا العفو، اعلم أخي القارئ أن لذوي الأخلاق الفاضلة منزلة عالية في الدنيا والآخرة عند اللّٰه وعند الناس، ففي الصحيح قال رسول اللّٰه ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** » و « **إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم خلقًا** » وقد سئل ﷺ عن البر؟ فقال : « **حسن الخلق** »، وسئل عن أفضل الأعمال؟ قال : « **حسن الخلق** ».

لقد دللناك على شروط المساهمة في المشروع، ولكني كأني بك تسأل كيف أتخلق بتلك الأخلاق الفاضلة لأكون مسهمًا حقيقيًا في ذلك المشروع؟

إن الأخلاق الفاضلة لهي واللّٰه خير من الذهب والفضة والأموال الطائلة، ولا سبيل للحصول عليها والتخلق بها واكتسابها إلا بالتأسي بسيد البشر المصطفى محمد بن عبد اللّٰه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، والذي كان مضرب الأمثال في هذا الباب، وفي كل باب نافع مفيد، فالرسول ﷺ هو قائدنا إلى رضا اللّٰه عز وجل، رضا اللّٰه هو الأمل المطلوب تحقيقه، فها نحن نسعى جهدنا على تحقيقه ولا نهتم إن اعترض طريقنا غيره من الآمال، وما ذلك إلا لأنها غير جالبة للراحة النفسية والاطمئنان القلبي والحياة الطيبة كما مر بك عزيزي القارئ وكما تلحظه أنت بنفسك، فالاشتغال بها أي بتلك الآمال آنفة الذكر انشغال بأمر لا يسمن ولا يغني من جوع، فهي آمال غير قابلة للاستمرارية والدوام، وإن تحقق بعضها فلم نهتم بالزائل ونترك الباقي الدائم؟ يقول الربيع بن خثيم : لو خيرت بين فراش من الذهب في الدنيا وحصير من الخزف في الآخرة لاخترت الحصير على الذهب، لأن فراش الدنيا قابل للزوال غير قابل للاستمرار والدوام، أما حصير الآخرة فهو ثابت دائم لا يزول، علمًا بأن فراش الآخرة لأهل الصلاح والتقى هو الذهب وفراش الدنيا هو الخزف، ويقول عبد اللّٰه بن عامر التميمي في دعائه : إلهي إنك تعلم أنه لو كانت لي الدنيا

بما فيها ثم طلبت مني مرضاة لك لوهبتها لطالبها أي أن الدنيا بما فيها عند الإنسان المؤمن في كفة ورضا الله في كفة، هذا لمن قاس الأمور بالعقل لا بالنفس وما تهوى، لقد ذكرنا آنفًا أن الطريق الوحيد لاكتساب الأخلاق الفاضلة هو التأسي بمحمد ﷺ، فتعال معنا إلى ذكر أخلاق ثلاثة ذكرت في الآية الثانية من النص ألا وهي: الكرم والمتمثل في الإنفاق بسخاء، والحلم المتمثل في كظم الغيظ، والخلق الثالث وهو العفو، وخير من تخلق بها الرسول ﷺ فأصبح يضرب به المثل فيها وفي كل صفة طيبة نافعة.

عزيزي القارئ الكريم: إن الحديث عن الأخلاق ليس ترفًا علميًا وليس نافلة في درجات العمل، بل هو طريق إلى السعادة لمن حسن خلقه وطريق إلى الشقاوة لمن أساء تعامله.

أخي القارئ الكريم: إنه لا يتم للحديث بنيان وللمقال بيان ولا للكلمات جمال وبهاء حتى نعطر أسماعنا بقطرات ندية ومواقف زكية من أخلاق رجل حوى أعظم سيرة وأزكى سريرة، إنه المصطفى ﷺ الحبيب يا محب. لقد كتب الشيخ الجزائري في هذا الباب: خلق الرسول ﷺ في كتابه «هذا الحبيب يا محب» صفحة ٥٢٥ - ٥٣٠، كتب يقول:

الكـرم المحمـدي:

إن الكرم المحمدي كان مضرب الأمثال، وقد كان ﷺ لا يرد سائلًا وهو واجد ما يعطيه، فقد سأله رجل حلة كان يلبسها، فدخل بيته فخلعها ثم خرج بها في يده وأعطاه إياها. ففي «صحيح البخاري» ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام إلا أعطاه. سأله رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأتى الرجل قومه فقال لهم: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة. إذ كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه وأعز من الدنيا وما فيها. وحسبنا في الاستدلال على كرم رسول الله ﷺ حديث البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سئل عن جود الرسول وكرمه فقال: كان رسول الله أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فرسول الله

أجود بالخير من الريح المرسلة ، بمعنى أن عطاءه دائم لا ينقطع بيسر وسهولة ، وها هي ذي أمثلة لجوده وكرمه ﷺ :

** حملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلًا حتى فرغ منها .

** أعطى العباس رضي اللّه عنه من الذهب ما لم يطق حمله .

** أعطى معوذ بن عفراء ملء كفه حليًا وذهبًا لما جاءه بهدية من رطب وقثاء .

** جاءه رجل فسأله فقال : « **ما عندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيناه** » ، وكيف لا يكون الحبيب ﷺ أكرم الناس وأجودهم على الإطلاق وهو القائل : « **ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا** »[1] . والقائل أيضًا : « **يقول اللّه تعالى : ابن آدم أنفق أنفق عليك** »[2] . وقد دل عليه قول ربه : ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾[3] .

الحلم المحمدي:

** إن الحلم وهو ضبط النفس حتى لا يظهر منها ما يكره قولًا كان أو فعلًا عند الغضب ، وما يثيره هيجانه من قول سيئ أو فعل غير محمود . هذا الحلم كان فيه الحبيب ﷺ مضرب المثل . والأحداث التالية شواهد لحلمه فداه أبي وأمي وﷺ له ، وذلك لتربية اللّه تعالى له ، وإفاضته الكمالات على روحه ﷺ :

** لما شجت وجنتاه وكسرت رباعيته ودخل المغفر في رأسه ﷺ يوم أحد قال : « **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** »[4] فهذا منتهى الحلم والصفح والعفو والصبر منه ﷺ .

** لما قال له ذو الخويصرة : اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه ، حلم عليه وقال له : « **ويحك فمن يعدل إن لم أعدل** » ولم ينتقم منه ولم يأذن لأحد من أصحابه بذلك .

---

(١) رواه البخاري في الزكاة ٣/٢٤١ .
(٢) رواه البخاري في تفسير سورة هود ٨/٢٦٥ .
(٣) سبأ : ٣٩ .
(٤) رواه البخاري ١٠/٤٢٦ في الأدب .

** لما جذبه الأعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثَّرت في صفحة عنقه ﷺ، وقال: احمل لي على بعيري هذين من مال اللَّه الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك، حلم عليه ﷺ ولم يزد أن قال: «**المال مال اللَّه وأنا عبده ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي**» فقال الأعرابي: لا، فقال النبي ﷺ «**لم؟**» قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة، فضحك ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى آخر تمر، فأي حلم وأي كمال هذا يا عباد اللَّه؟!

** لم يثبت أنه ﷺ انتصر لنفسه من مظلمة ظلمها قط، ولا ضرب خادمًا ولا امرأة قط. بهذا أخبرت عائشة رضي اللَّه عنها، فقالت: ما رأيت رسول اللَّه ﷺ منتصرًا من مظلمة ظلمها قط، ما لم تكن حرمة من محارم اللَّه، وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل اللَّه، وما ضرب خادمًا قط ولا امرأة.

** وجاءه سيف بن سعفة أحد أحبار اليهود بالمدينة، جاءه يتقاضاه دينًا له على النبي ﷺ فجذب ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وقال مغلظًا القول: إنكم يا بني عبد المطلب مطل فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم وقال ﷺ: «**أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي**» ثم قال: «**لقد بقي من أجله ثلاث**» وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعًا لما روعه، فكان هذا سبب إسلامه فأسلم، وكان قبل ذلك يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا عرفته في محمد ﷺ إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلمًا فاختبره بهذه الحادثة فوجده كما وصف.

هذه قطرة من بحر الحلم المحمدي تذهب ظماء من أراد أن يتحلى بالحلم ويتجمل به.

العفو المحمدي:

إن العفو هو ترك المؤاخذة عند القدرة على الأخذ من المسيء المبطل، وهو من خلال الكمال، وصفات الجمال الخلقي، أمر اللَّه تعالى به رسوله في قوله من سورة الأعراف: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[1] وسأل ﷺ جبريل عن معنى هذه

(١) الأعراف: ١٩٩.

الآية فقال له : « **حتى أسأل العليم الحكيم** » ثم أتاه فقال : « **يا محمد إن اللّٰه يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك** » وامتثل رسول اللّٰه ﷺ أمر ربه فكان مضرب المثل في الخصال الثلاث في صلة من قطعه وإعطاء من حرمه والعفو عمن ظلمه ، وفي الأمثلة الآتية شاهد ذلك ودليله :

** قالت عائشة رضي اللّٰه عنها : ما خير رسول اللّٰه ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول اللّٰه ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة اللّٰه تعالى فينتقم للّٰه بها .

تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ﷺ ، ورسول اللّٰه مطرح تحت شجرة وحده قائلًا [1] ، وأصحابه قائلون كذلك ، وذلك في غزاة ، فلم ينتبه رسول اللّٰه ﷺ إلا وغورث قائم على رأسه ، والسيف مصلت في يده ، وقال : من يمنعك مني ؟ فقال ﷺ : « **اللّٰه** » فسقط السيف من يد غورث فأخذه النبي ﷺ وقال : « **من يمنعك ؟** » قال غورث : كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه . فعاد إلى قومه فقال : جئتكم من عند خير الناس ، فهكذا كان العفو المحمدي .

** لما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح وجد رجالات قريش جالسين مطأطئين الرءوس ينتظرون حكم رسول اللّٰه ﷺ الفاتح فيهم فقال : « **يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟** » ، قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم قال : « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » فعفا عنهم بعد ما ارتكبوا من الجرائم ضده وضد أصحابه ما لا يقدر قدره ولا يحصى عدده ، ومع هذا فقد عفا عنهم ولم يعنف ولم يضرب ولم يقتل فصلى اللّٰه عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

** سحره لبيد بن الأعصم اليهودي وقد نزل الوحي بذلك فعفا عنه ولم يؤاخذه ، بل لم يثبت أنه لامه أو عاتبه مجرد لوم أو عتاب فضلًا عن المؤاخذة والعقاب ، فكان موقفه هذا مظهر العفو المحمدي في أجل صوره وأبهى مظاهره فصلى اللّٰه عليه وسلم ما عفا عاف وأخذ مؤاخذ إلى يوم الدين .

---

(١) اسم فاعل من قال يقيل – أي من القيلولة وليس من القول .

** تآمر عليه المنافقون وهو في طريق عودته من تبوك إلى المدينة، تآمروا عليه ليقتلوه وعلم بهم وقيل له فيهم فعفا عنهم وقال: « **لا يتحدث أن محمدًا يقتل أصحابه** ».

** جاءه رجل يريد قتله فاكتشف أمره وظهرت حاله فقال له أصحابه: إن هذا جاء يريد قتلك فاضطرب الرجل من شدة الخوف والروع فقال له: « **لن تراع لن تراع لو أردت ذلك - أي قتلي - لم تسلط عليَّ** »، لأن اللَّه أعلمه بعصمته له من الناس فعفا عنه ﷺ وقد أراد قتله فلم يؤاخذه، بل لم يعاقبه فصلى اللَّه عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا. اهـ.

عزيزي القارئ الكريم: الرسول ﷺ كم في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق، وفي يده من السَّخاء والندى، ولنا أن نتساءل أخي القارئ الكريم ما نصيبنا من هذه الأخلاق وما ميراثنا من هذه التركة؟ أي ما موقفنا؟ من هذه الخلال الحميدة والأفعال الرشيدة، لماذا أصبحت أخلاقه ﷺ تراتيل بها نتغنى وأوراد صاحبها يتمنى؟ إنه لأمر يدعو للأسى والحزن، وما وصل إليه حال أخلاقنا اليوم واللَّه المستعان.

أخي القارئ الكريم: علينا أن نتعلم أخلاقه ﷺ ونعلمها من نعول، علينا أن نغرسها في نفوسنا أولًا ونؤسس عليها أبناءنا لننهل من رحيقها الذي لا ينضب، وبهذا يكون قد أسهمنا في تحقيق الأمل المفقود والذي بتحقيقه تتحقق لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

لعلك بعد هذا كله عرفت ما الأمل المفقود وكيف نعمل؟ من أجل تحقيقه.

عزيزي القارئ الكريم: إن رضا اللَّه يتحقق بطاعته، وغضبه يتحقق بمعصيته، ورضا اللَّه فيه مصلحة لك ولحياتك الدنيوية والأخروية، وغضبه فيه شقاؤك في الدنيا والآخرة.

أما المصلحة فهي السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ **من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[1].

يقول ابن كثير في « تفسيره » (٢/٥٨٦) يقول: هذا وعد من اللَّه تعالى لمن عمل صالحًا

---

(١) النحل: ٩٧.

وهو العامل التابع لكتاب اللّٰه – عز وجل – وسنة نبيه ﷺ من ذكر وأنثى من بني آدم وقلبه مؤمن باللّٰه ورسوله وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند اللّٰه بأن يحييه اللّٰه حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس إنها هي السعادة ، قال الرسول ﷺ : « **إن اللّٰه لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يعطى بها خيرًا** »[١] اهـ .

هكذا يعيش من رضي اللّٰه عنه منشرح الصدر مطمئن النفس مرتاح البال بعكس من يعصي اللّٰه – عز وجل – فهو يعيش ضيق الصدر قلق النفس غير مرتاح البال ، قال تعالى : ﴿ **ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء** ﴾[٢] .

* * *

(١) أخرجه مسلم.

(٢) الأنعام : ١٢٥ .

لكل رحلة محطة

فمحطتنا الأولى مع الأجوبة المسكتة

بين هشام بن عبد الملك وبين الأعمش:

قال أبو معاوية الضرير: بعث هشام بن عبد الملك إلى أبي محمد سليمان الشهير بالأعمش يقول: يا أبا محمد، اكتب لي مناقب عثمان ومساوئ علي، فأخذ الأعمش بالرسالة ورمى بها وكتب إلى هشام يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: يا أمير المؤمنين، فلو كانت لعثمان - رضي الله عنه - مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كان لعلي - رضي الله عنه - مساوئ أهل الأرض ما ضرتك، فعليك بخاصة نفسك، والسلام.

الحسود لا يسود:

قال الأصمعي: سخط هارون الرشيد على عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - فأمر بمثوله بين يديه يرسف في قيوده، وقال له: هيه يا عبد الملك، كأني والله أنظر شؤبوبها قد همع، وإلى عارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد أقلع عن براجم بلا معاص، ورءوس بلا غلاصم، مهلًا مهلًا بني هاشم، فبي والله سهل لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمَّتها، فخذوا حذركم مني قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل. فقال له عبد الملك: اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك، وراقبه في رعاياك التي استرعاك، فقد سهلت والله لك الوعور، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور، فتحرك يحيى بن خالد البرمكي وكان في المجلس ليضع من قدر عبد الملك عند الرشيد فقال: يا عبد الملك بلغني أنك حقود. فقال عبد الملك بن صالح: أصلح الله الوزير إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي فإنهما لباقيان في قلبي: قال الأصمعي: فالتفت إليَّ الرشيد وقال: يا أصمعي دون ما سمعت من أجوبة وحجج، فوالله

ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك ، ووالله لقد نظرت إلى موضع السيف مرارًا في عنقه ويمنعني من ذلك إبقائي على قومي في مثله .

بين يحيى بن أكثم وآخر:

جاء رجل إلى يحيى بن أكثم وقال له : يا يحيى ، قالوا عنك : إنك مجادل قوي ومناظر فذ ، فهل لي أن أسألك ؟ وهل لك أن تجيب ؟

قال يحيى بن أكثم : عجل بما عندك فلن تسمع إلا أجوبة مقنعة إن شاء الله .

فقال الرجل : أصلح الله القاضي كم آكل ؟

قال يحيى بن أكثم : فوق الجوع ودون الشبع .

فقال الرجل : فكم أضحك ؟

فقال يحيى بن أكثم : حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك .

فقال الرجل : وكم أبكي ؟

قال يحيى بن أكثم : لا تمل البكاء من خشية الله تعالى .

فقال الرجل : فكم أخفي عملي ؟

قال يحيى بن أكثم : ما استطعت .

فقال الرجل : وكم أظهر منه ؟

قال يحيى بن أكثم : مقدار ما يقتدي بك البر والخير ويؤمن عليك قول الناس .

أيهما أنظف؟

حدث أن طالبًا سودانيًا مسلمًا كان يدرس في الجامعة الأمريكية في بيروت . كان هذا الطالب السوداني المسلم محافظًا على أداء فرائضه الدينية ، وفي أحد الأيام لاحظه أحد المدرسين في هذه الجامعة يتوضأ للصلاة فصاح فيه غاضبًا : كيف تغسل قدميك في حوض نغسل فيه وجوهنا ؟ إنها حيلة الذئب المعروفة مع الحمل ...

فقال له : الطالب السوداني : كم مرة تغسل وجهك في اليوم ؟

الأستاذ الأمريكي : مرة واحدة في كل صباح طبعًا .

الطالب السوداني : أما أنا فأغسل رجلي على الأقل خمس مرات في اليوم .

ولك أن تحكم بعد ذلك أيهما أكثر نظافة رجلي أم وجهك ؟!!.

بين معاوية وعبد الله بن جعفر:

كان عبد اللّه بن جعفر كريمًا إلى حد الإسراف، فقال له معاوية يعاتبه: يا عبد اللّه: وإلى متى هذا الإسراف والإفراط والأيام مقبلة مدبرة؟ فأجاب عبد اللّه: يا أمير المؤمنين: إن اللّه تعالى عودني عادة وعودت عبادة عادة فأخشى إن قطعت عادتي عن عباده أن يقطع عادته عني.

بين ملك ومظلوم:

أمر أحد الملوك بضرب رجل حتى أوجعوه، فقال الرجل: أيها الملك إذا ضربت فاضرب ضربًا تقوى عليه، قال الملك: وكيف ذلك أيها الرجل؟

فقال الرجل المضروب: نعم إذا ضربت فاضرب ضربًا تقوى عليه، لأنه لا بد من القصاص.

بين هشام بن عبد الملك وغلام عربي:

لما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة أقبل عليه وفد من العرب فقال لهم: ما لكم وقد تكأكأتم وتكتلتم؟ فقالوا: نحن وفد العرب جئنا للشكوى وقد أصابنا الجدب، فقال لهم هشام: سأنظر في أمركم ومصيركم إن شاء اللّه.

فهب من بين الوفد أصغرهم سنًّا وقال: يا أمير المؤمنين إن شكوانا لا تحتمل الانتظار، وقد أصابتنا سنون ثلاث أذابت الشحم، وأكلت اللحم، ودقت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت للّه فأنفقوا من مال اللّه على عباد اللّه، وإن كانت لهم فردوا عليهم أموالهم، وإن كانت لكم فتصدقوا عليهم منها، إن اللّه يجزي المتصدقين.

فقال هشام: للّه درك، فلم تترك لنا عذرًا في واحدة.

بين الحجاج وقطري بن الفجاءة:

كان لابن الفجاءة أخ خرج على الحجاج ولم يظفر به، فأمسك بابن الفجاءة وهدده بالقتل، فقال له: ولم تقتلني ولم أقترف إثمًا ولم أجترح ذنبًا؟

فقال الحجاج: ذلك لخروج أخيك عليَّ.

فقال ابن الفجاءة: إن معي كتاب أمير المؤمنين أن لا تأخذني بذنب غيري.

قال الحجاج : هاته .

فقال ابن الفجاءة : والله إن معي أرفع منه وأكرم ، هو كتاب الله الذي يقول فيه : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[1] .

بين أستاذ وتلميذه:

سأل تلميذ أستاذه : من أحب إليك أخوك أو صديقك ؟

فقال الأستاذ : إن أحب الناس إليَّ أخي إذا كان صديقًا .

بين الرشيد والفضيل بن عياض:

زار الرشيد والعباس ليلًا الفضيل بن عياض ، ولما كانا على بابه سمعاه يقرأ : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون** ﴾[2] . فقال الرشيد للعباس : والله إن انتفعنا بشيء فبهذا .

فنادى العباس : تقدم يا فضيل أمير المؤمنين .

فقال الفضيل بن عياض : وما حاجتي يا أمير المؤمنين ؟ ثم فتح الباب وأطفأ السراج ، فطاف الأمير بالظلام حتى وضع يده عليه .

فقال الفضيل بن عياض : آه ما ألين هذه اليد إن نجت من عذاب يوم القيامة ، وقال : استعد يا أمير المؤمنين للجواب يوم القيامة فسوف تتقدم مع كل مسلم ومسلمة .

فبكى الرشيد وقال العباس : اسكت يا فضيل فقد قتلت أمير المؤمنين .

فقال الفضيل بن عياض : اسكت أنت يا هامان ، فوالله ما قتله إلا أنت وأصحابك .

فالتفت أمير المؤمنين إلى العباس وقال له : والله ما سماك هامان إلا وقد جعلني فرعون ، والتفت إلى الفضيل وقال له : أتقبل مني هذه الهدية ؟ وهي ألف دينار .

فأجاب الفضيل بن عياض : سألتك بالله يا أمير المؤمنين إلا رددتها على من أخذتها منه .

---

(١) الأنعام : ١٦٤ . (٢) الجاثية : ٢١ .

بين فقير وصاحب مطحن:

قال فقير لصاحب مطحن: ألا تعجل بطحن نصيبي في الغلة؟ فقال له صاحب المطحن: واللَّه إني ليحزنني أن أقول لك إن من المنتظرين من هم أولى منك.

فقال الفقير: واللَّه إنه ليحزنني أيضًا أن أدعو اللَّه فيهلك دابتك التي هي مصدر رزقك.

فقال صاحب المطحن: وهل دعاؤك مستجاب؟

قال الفقير: نعم.

فقال صاحب المطحن: إذن فادع اللَّه أن يستحيل قمحك دقيقًا.

بين معاوية وعرابة الأنصاري:

قال معاوية لعرابة الأنصاري: بم سدت قومك يا عرابة؟

فقال عرابة الأنصاري: لست بسيدهم.

قال معاوية: أتنكر الأمر الواقع يا عرابة وقد سودك قومك عليهم؟

فقال عرابة: قلت لست بسيدهم، ولكني رجل منهم أعطيت في نائبتهم وحلمت في سفيههم، وشددت على يدي حليمهم، فمن فعل منهم مثل فعلي فهو مثلي، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه، ومن تجاوزه فهو أفضل مني.

بين عمر بن الخطاب وحذيفة وعلي بن أبي طالب:

قال عمر - رضي اللَّه عنه - لحذيفة بن اليمان: كيف أصبحت يا حذيفة؟

فقال حذيفة: أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق، وأصلي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس للَّه في السماء، فغضب عمر.

ودخل عليه علي - رضي اللَّه عنه - وقال له: على وجهك أثر الغضب يا أمير المؤمنين.

فقص عليه ما أغضبه من حذيفة.

فقال علي: لقد صدق حذيفة: أما حبه للفتنة فهو يعني المال والبنين، لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾[1]، وأما أنه يكره الحق، فهو يكره الموت، وأما

---

(١) التغابن: ١٥.

صلاته بغير وضوء فيعني بها صلاته على النبي ﷺ ، وأما ما له في الأرض ما ليس للّه في السماء ، فهو يعني أن له زوجة وولدًا وليس للّه زوجة ولا ولد .

فقال عمر : واللّه لقد أقنعتني وأرحتني .

هل أنت شجاع أم جبان؟

قال عمرو بن العاص لمعاوية : قد أعياني أن أعلم أجبان أنت أم شجاع ؟ لأني أراك تتقدم حتى أقول أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول أراد الفرار ؟

فقال له معاوية : واللّه يا عمرو ما أتقدم حتى أرى التقدم غنمًا ، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزمًا كما قال القطامي :

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة   وإلا تكن لي فرصة فجبان

أصبت في صمتك :

قال طاهر بن أحمد الزبيري : كان يجلس إلى القاضي أبي يوسف رجل يطيل الصمت ، فقال له أبو يوسف : يا هذا ألا تتكلم فتزيل عن نفسك وحشة الصمت ؟

قال الرجل الصامت : بلى ، متى يفطر الصائم ؟

فقال له القاضي أبو يوسف : إذا غابت الشمس .

قال الرجل الصامت فإن لم تغب إلى نصف الليل ؟

فقال القاضي أبو يوسف بعد أن ضحك : واللّه لقد أصبت في صمتك ، وأخطأت أنا في استعجال نطقك .

قرة العين :

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي اللّه عنهما - وقد بلغت مائة سنة ولم تقع لها سن ولا ابيض لها شعر ، فقال لها : يا أماه كيف تجدينك ؟ قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق : واللّه في شاكية يا بني .

فقال لها ابن الزبير : إن في الموت راحة .

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق : لعلك تتمناه لي ؟

فقال لها ابن الزبير : إنما أتمناه لراحتك .

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق : والله ما أحب أن أموت حتى أشهد إحدى أمنيتين : إما قتلت فأحتسبك ، وإما ظفرت فتقر عيني بك . فتحققت الأولى ولم تتحقق الثانية .

بين عنترة بن شداد وآخر:

قال الهيثم بن عدي : قيل لعنترة بن شداد : أأنت أشجع القوم حقًّا ، وما سر كل هذه الشهرة التي تدور حولك وتدور حولها ؟

قال عنترة : اسمع لتقنع : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام غُنمًا ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا ، ولا أدخل موضعًا لا أرى لي منه مخرجًا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهالكة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله ، أقنعت بهذا أم أزيدك إقناعًا ؟

بين أبي حازم ومجادل:

جادل رجل أبا حازم فقال له : يا أبا حازم ما مالك ؟

قال أبو حازم : شيئان : الرضا عن الله ، والغنى عن الناس .

فقال له الرجل : ألا ترفع حوائجك إلينا ؟

قال أبو حازم : هيهات ، لقد رفعتها إلى من لا تختزل الحوائج دونه ، فإن أعطاني ما رجوت شكرت ، وإن أعطاني بعضه رضيت وقنعت وما تنكرت .

فقال الرجل : والله إنك لمسكين يا أبا حازم .

قال أبو حازم : وكيف أكون مسكينًا ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ؟ !

من أطيـــــع:

انتهى اليوم الدراسي وعادت الفتاة الصغيرة إلى منزلها وقد غشي وجهها سحابة من حزن ولمحت الأم الحنون أن هناك أمرًا يعتمل في نفس صغيرتها ، ولم تحتج إلى جهد لتفحص الفتاة وتقول الفتاة : أماه ! إن مدرستي هددتني بالطرد من المدرسة لأجل هذه الملابس الطويلة التي ألبسها !

الأم : ولكنها الملابس التي يريدها اللّه !

الفتاة : نعم يا أماه ! ولكن المدرسة لا تريدها !

الأم : حسنًا يا ابنتِي ، المدرسة لا تريد واللّه يريد فمن تطيعين؟ أتطيعين اللّه الذي أوجدك وصورك وأنعم عليك ؟ أم مخلوقة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا ؟

الفتاة : بل أطيع اللّه .

الأم : أحسنت يا بنتي وأصبتي .

وفي اليوم التالي انفجرت المدرسة غاضبة مؤنبة تلك الفتاة التي تتحدى إرادتها ولا تستجيب لطلبها ولا تخاف من تهديدها ووعيدها ، ولما زادت في التبكيت وثقل الأمر على الصغيرة ولم تستطع مواجهة ذلك السيل من المدرسة وتلك النظرات من زميلاتها ، عند ذلك انخرطت في بكاء شديد ذهلت له المدرسة وجعلتها تتوقف وتهدي ثم قالت الفتاة : واللّه لا أدري من أطيع ؟ أنت أم هو ؟

المدرسة : ومن هو ؟

الفتاة : اللّه ، أأطيعك أنت فألبس ما تريدين وأغضبه هو؟ أم أطيعه وأعصيك ؟ سأطيعه سبحانه ، وليكن ما يكون . وسكتت المدرسة .

وفي اليوم التالي دعت المدرسة أم الفتاة لتقول لها المدرسة : لقد وعظتني ابنتك أعظم موعظة سمعتها في حياتي .

اطلب الرزق:

قال عمر بن الخطاب لأبي هريرة – رضي اللّه عنهما – : ألا تعمل يا أبا هريرة ؟

فقال أبو هريرة : لا أريد العمل .

فقال عمر – رضي اللّه عنه – : واللّه لقد طلب العمل منه خير منك يا أبا هريرة .

فقال أبو هريرة – رضي اللّه عنه – : ومن هو يا عمر؟

فقال عمر – رضي اللّه عنه – : يوسف عليه السلام قال : ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**﴾[١] .

---

(١) يوسف : ٥٥ .

بين الحجاج بن يوسف والمهلب :

قال ابن زهير بن حرب : كتب الحجاج بن يوسف إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطئه ، ويتهمه بالضعف والعجز . فرد عليه المهلب يقول : إنما البلاء في الأمر بيد من يموته لا بيد من يعقله ، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن أمكنتني الفرصة انتهزتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك الأمر بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب. فإن كان صوابًا فلك وإن كان خطأ فعلي فابعث من رأيت مكاني .

بين الحجاج وأحد الخوارج:

سأل الحجاج رجلًا من الخوارج : أجمعت القرآن يا خارجي ؟

فقال الخارجي : واللَّه ما كان مفرقًا فأجمعه .

قال الحجاج : وهل حفظته في صدرك ؟

فقال الخارجي : واللَّه ما خشيت ضياعه فأحفظه .

قال الحجاج : واللَّه إن دمك لمهدر فانظر كيف تلقى اللَّه .

فقال الخارجي : ألقاه أنا بعملي ، وتلقاه أنت بدمي .

التسليم لقضاء اللَّه :

مات لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضوان اللَّه عليهم - ولد ، فلم يحزن ولم يجزع عليه .

فقال له أحدهم : يا علي ، أيموت ولدك وفلذة كبدك وأملك في الحياة وظهيرك فيها . ولم تأبه لموته ولم تجزع ؟

فأجاب علي - رضي اللَّه عنه - : نعم لأنه أمر كنا نتوقعه فلما وقع لم ننكره ، وفي هذا تسليم لقضاء اللَّه عز وجل .

حاضـر البديهـة :

قال عبد اللَّه بن صفوان (وكان أميًا) لعبد اللَّه بن جعفر : أبا جعفر ، واللَّه لقد صرت

حجة لأولادنا علينا ، إذا نهيناهم عن اللهو ، قالوا : هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يلهو ويلعب ، فقال له عبد اللّٰه بن جعفر : وأنت يا أبا صفوان صرت حجة لصبياننا علينا ، إذا لمناهم على ترك المكتب ، قالوا : هذا أبو صفوان سيد بني جمح لا يقرأ حرف ولا يخطه .

* * *

القلـــب واللســـان

وبعد أن تحدثنا عن الإنسان بشكل عام ، سوف نبدأ بالحديث عما كان عنوانًا لهذا الكتاب ، وهو القلب واللسان ، فهل القلب واللسان كل شيء في الإنسان ؟ إذن اقرأ قول الرسول ﷺ : « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب** »[1] هذا ما يخص القلب ، أما ما يخص اللسان فاقرأ إن شئت قوله ﷺ : « **إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان ؛ تقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك ، فإنك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا** »[2] .

وكما قال أيضًا في هذا الباب لقمان الحكيم حكمته المشهورة في القلب واللسان حيث قال : (إنه ليس من شيء أطيب منهما – أي القلب واللسان – إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا)[3] .

وأيضًا من الشعر قال الشاعر زهير بن أبي سلمى الشنني :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

وبعد هذا الإجمال عن القلب واللسان إليك التفصيل والبيان والله المستعان وعلى الله التكلان :

القلـــب :

من المعلوم أن القلب هو سيد الجوارح وملك الأعضاء وهو مستودع العقائد والأخلاق والنيات المذموم منها والمحمود ، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا إذا طهَّره الإنسان وزكَّاه عن القبائح والرذائل وزيَّنه وجلَّاه بالمحاسن والفضائل ، قال الله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾[4] ، ثم إن الأخلاق المذمومة والخصال الممقوتة في القلب كثيرة ، وكذلك الأخلاق المحمودة والخصال

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه الترمذي في أبواب الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان حديث : (٢٥١٨) .
(٣) « تفسير ابن كثير » ٣/٤٤٤ .
(٤) الشمس : ٧- ١٠ .

المحبوبة التي ينبغي للمؤمن أن يحلي بها قلبه كثيرة .

لذلك فالقلوب هي التي تفقه وتعقل ، يقول اللَّه تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ (١) .

والقلب محل الرأفة والرحمة وذلك بالنص المحكم : ﴿ **وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة** ﴾(٢) . والقلبِ مكان السكينة التي يزداد بها إيمان المؤمن بنص الآية الشريفة : ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم**) (٣) ، وبذكر اللَّه تطمئن القلوب إذ يقول ربنا العظيم في نص القرآن الكريم : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر اللَّه ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب** ﴾ (٤) ، ولذلك حرص القرآن الكريم على تكرار القول بأن من لم يستحقوا الهداية فإن اللَّه يجعل على قلوبهم الأغطية فلا يفقهون ما يتلى عليهم ، أو يقال لهم أو ينقل إليهم تأكيدًا على أن القلب هو ما يفقه به الإنسان ويعقل ، وذلك في مثل النص الكريم : ﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾ (٥) .

وبيانًا لأهمية القلب في العلم والعقل والفقه فإن القرآن الكريم يقرر أن اللَّه سبحانه وتعالى يحول بين الإنسان وقلبه ، وهذه إشارة إلى مدى ما يحققه القلب للإنسان في حياته وآخرته وذلك في النص الشريف : ﴿ **واعلموا أن اللَّه يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون** ﴾(٦) ، والكفر والزيغ عن الحق وكل أمراض الشرك إنما تأتي من القلب وذلك بالنص الكريم : ﴿ **وقولهم قلوبنا غلف بل طبع اللَّه عليها بكفرهم** ﴾ (٧) ، بل والحقد والضغينة والكره والغل كل ذلك محله القلب ، وفي ذلك يعلمنا القرآن الكريم بنصه الحكيم : ﴿ **ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ (٨) .

يقولون : إن العقل السليم في الجسم السليم ، فماذا نقول عزيزي القارئ الكريم ؟ إن سلامة الجسم من العاهات ليست كل شيء ، صحيح عند الحيوان سلامة الجسم كل

(١) الأعراف : ١٧٩ . (٢) الحديد : ٢٧ . (٣) الفتح : ٤ .
(٤) الرعد : ٢٨ . (٥) الكهف : ٥٧ . (٦) الأنفال : ٢٤ .
(٧) النساء : ١٥٥ . (٨) الحشر : ١٠ .

شيء، فلو كان أعمى لا يرى لمات من الجوع لأنه لا يستطيع أن يأكل وهو لا يرى، وكذلك لو كان مشلولًا.

أما الإنسان فيختلف اختلافًا كليًا، لذا لا يصح منا أن نجعل العقل تبعًا للجسم لأن الواقع يترجم خطأ هذا المفهوم فكم من أعمى البصر نجده سليم البصيرة متسببًا في إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان وهو بفقده بصره لا نستطيع أن نصفه بسلامة الجسم، لكننا نصفه والحالة هذه بسلامة العقل، والعقل مدار التكليف، فلو تتبعت معنا أخبار الأولين والآخرين من الناس لوجدت أن كثيرًا ممن ابتلوا بالعاهات هم عباقرة عصرهم وعلماؤهم وكان لهم الدور الكبير في إحياء التراث الفكري ونشاطه ورقيه، إذًا سلامة الجسم وقوته ليست كل شيء في الإنسان فإنما الإنسان بقلبه لا بجسمه، فإذا صلح القلب صلح الجسم وإذا فسد القلب فسد الجسم، قال الرسول ﷺ - والذي بدأنا به هذا البحث -: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١) والقلب محل العقل إذًا ليس العقل تبعًا للجسم وإنما الجسم تبعٌ للعقل. إذا كانت سلامة الأجسام هي كل شيء فإنها متوفرة في وحوش الغابة كذلك متوفرة في مصارعي الثيران ورافعي الأثقال، يقول حسان بن ثابت يصف وفدًا من المشركين جاءوا إلى الرسول ﷺ وهم يسخرون من صحابة رسول الله ﷺ، يقولون: إنهم ضعاف قصار القامة فقال حسان للقوم:

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم ... جسم البغال وأحلام العصافير

إذا كان الإنسان بقلبه لا بجسمه فيا ترى ما القلب؟ ولم سمي قلبًا؟ يقول الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «إحياء العلوم» (٣/٣) يقول: لفظ القلب هو يطلق لمعنيين (أحدهما): اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود أيضًا للميت، ويقول الغزالي ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في الأغراض الدينية لم نعني به ذلك فإنه قطعة لحم لا قدر له.. والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان. اهـ.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

أما لم سمي القلب بالقلب فهذا ابن حجر العسقلاني في كتابه « فتح الباري » (١/ ١٧٥) يجيبك فيقول : سمي القلب قلبًا لتقلبه في الأمور أو لأنه خالص ما في البدن وخالص كل شيء قلبه ، أو لأنه وضع في الجسم مقلوبًا . اهـ ، قال رسول اللَّه ﷺ في دعائه : « **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** »(١) .

وقال الشاعر :

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... وما القلب إلا أنه يتقلب

العقل – القلب مدار التكليف :

قال تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ..** ﴾(٢) .

أخي الكريم : ألم تسألْ نفسك عن المؤهل الذي أهّل ...؟ هذا المخلوق لأن يكون خليفة ، إنه العقل ، الفؤاد القلب ، بهذا القلب الروحاني(٣) أصبح مؤهلًا لأن يقوم بعمارة الأرض إلا أنه في الوقت نفسه صاحب في تحقيق هذه المهمة ابتلاءات له من رب الأرض والسموات أيشكر أم يكفر؟ قال تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملًا** ﴾(٤) ، وقال تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه** ﴾(٥) ، وقال تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملًا** ﴾(٦) .

يقول محمد قطب في كتابه « مفاهيم ينبغي أن تصحح » (ص ٣٠٠- ٣٢٣) يقول : فقد خلق اللَّه الكيان البشري محببة إليه الشهوات : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾(٧) ، وفي الوقت ذاته حدد اللَّه الحدود : ﴿ **تلك حدود اللَّه فلا تقربوها** ﴾(٨) ، ﴿ **تلك حدود اللَّه فلا تعتدوها** ﴾(٩) ، ومن رحمته حدد له تلك الحدود التي علم سبحانه أنها تحقق القدر المعقول من المتاع دون أن تعطب كيان الإنسان ، ولكن نقطة الابتلاء هي تزيين الشهوات له بحيث يرغب في الاستزادة منها ، وتقييده في الوقت

---

(١) رواه الترمذي ٢/ ٢٠ وقال حديث حسن ، قال الألباني : وهو على شرط مسلم .
(٢) البقرة : ٣٠ . (٣) الإيماني . (٤) الملك : ٢ .
(٥) الإنسان : ٢ . (٦) الكهف : ٧ . (٧) آل عمران : ١٤ .
(٨) البقرة : ١٨٧ . (٩) البقرة : ٢٢٩ .

ذاته بهذا القدر المباح له وعدم السماح له بتجاوزه، ولو هفت نفسه إلى المزيد، ولكن الله هو الغني لم يترك الإنسان ليتعذب بالحرمان بين حب الشهوات المزينة له وبين القيود المفروضة عليه، ولو أنها لمصلحته، وإنما وهب له أداة عظيمة النفع عظيمة التأثير يستطيع بها أن يضبط منطلق شهواته دون أن يحس بلذع الحرمان بل يحس عن طريقها بالرفعة والاقتدار، الرفعة عن حبائل الشهوة والاقتدار على الضبط فيعوضه هذا الإحساس العظيم عما قد يحسه في مبدأ الأمر من الحرمان حتى يتعود فلا يعود يحس به، تلك الأداة العظيمة هي القلب أو العقل أو الفؤاد[١] : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[٢] ، ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[٣] ، ولفظة الابتلاء في الأمر كله هي : هل يستخدم الإنسان هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله له فيضبط منطلق شهواته ويرتفع بذلك الضبط إلى المستوى اللائق له وينشئ الحضارة بمعناها الحقيقي، ويحقق دور الخلافة الراشدة، وينال فوق ذلك كله الجزاء الأوفى فى الآخرة في الجنة التي « **فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** »[٤] ، أم يلقي هذه الأداة جانبًا وينساق مع شهواته فيهبط وينتكس ويدمر نفسه فردًا وجماعة على المدى القريب أو البعيد ولا ينشئ الحضارة الحقيقية اللائقة به ولا يحقق الخلافة الراشدة في الأرض، وفضلًا عن ذلك كله يتعرض للعقاب الرهيب الذي لا تطيقه النفوس ولا تطيقه الأبدان :

﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارًا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، إن الله كان عزيزًا حكيمًا * والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلًّا ظليلًا**)[٥] وإذا كانت هذه القضية من حس الإنسان السوي فالموقف الذي تمليه الحكمة ويتناسب مع الفؤاد الذي وهبه الله له أن يكتفي بالقدر المباح من المتاع لا

---

(١) ترد هذه الألفاظ مترادفة في اللغة العربية وكذلك يرد اسم القلب أو الفؤاد في القرآن بمعنى العقل.

(٢) النحل : ٧٨ . (٣) الحج : ٤٦ .

(٤) متفق عليه. (٥) النساء : ٥٦ ، ٥٧ .

يتجاوزه إلى ما حرم اللَّه فتستقيم حياته في الدنيا وينجو من عذاب اللَّه الرهيب ويستمتع في الآخرة بالجنة والرضوان ، وهكذا كان الأمر من حس الأجيال الأول التي تربَّت على المنابع الصافية لهذا الدين كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ، وكانت الدنيا والآخرة في حسهم تبعًا لذلك طريقًا واحدًا ورحبة واحدة : ﴿ **وابتغ فيما آتاك اللَّه الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[1] ، ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولًا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[2] ، وليس المطلوب من الإنسان في المنهج الرباني أن يقتل رغباته لكي يسلم من ارتكاب الذنوب ، وهو لا يسلم أبدًا في الحقيقة لأن ذلك يعطل جوانب كثيرة من مهمة الخلافة التي خلق اللَّه لها الإنسان ، إنما المطلوب منه أن يعمل ويتحرك في جميع المجالات المتاحة المباحة ليعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني وهو متق للَّه جهد الطاقة : ﴿ **فاتقوا اللَّه ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا** ﴾[3] ، فتمتلئ الأرض بالنشاط والحركة والنماء والقوة مع النظافة بقدر ما يطيق البشر ، وهذا هو إصلاح الأرض كما ورد في التعبير القرآني : ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾[4] ، ثم يحدث الصراع والدفع حتى على واقع الأرض لرد الأرض إلى الصلاح إذا أفسد فيها المفسدون : ﴿ **ولولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللَّه ذو فضل على العالمين** ﴾[5] ، ﴿ **ولولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم اللَّه كثيرًا ، ولينصرن اللَّه من ينصره إن اللَّه لقوي عزيز** ﴾[6] وهكذا يقوم الفرد المسلم والأمة المسلمة بمهمتهما في الأرض ولا تنتهي هذه المهمة مادام الناس على الأرض . اهـ .

إلا أنه لا يقوم بهذا الدور أعني دور عمارة الأرض كل قلب بل القلب السليم ، وأصحاب القلوب السليمة هم الذين يقومون بواجباتهم خير قيام ، لقد أنجزت المهمة وتحقق الإعمار في عهد الرسول ﷺ وفي عهد صحابته والتابعين لهم بإحسان رضي اللَّه عنهم ، وما ذلك إلا لأن قلوب أولئك كانت سليمة من الأمراض المتفشية في عصرنا الحاضر ، قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ..** ﴾[7] فهل الذكرى تنفع كل قلب ؟ طبعًا لا ، فالمراد بالقلب هنا هو القلب الحي الذي يعقل .

---

(١) القصص : ٧٧ .   (٢) الملك : ١٥ .   (٣) التغابن : ١٦ .
(٤) الأعراف : ٥٦ .   (٥) البقرة : ٢٥١ .   (٦) الحج : ٤٠ .   (٧) ق : ٣٧ .

أخي القارئ الكريم : لو قيل لك : ما أفضل عضوين في الإنسان ؟ أظنك لا تتردد في الجواب فتقول : القلب واللسان ، لكن ما رأيك لو قيل لك عكس ذلك وهو أن القلب واللسلن أخبث عضوين في الإنسان ، فهل تصدق ذلك أم تكذبه ؟ إذن تعال معي إلى رأي حكيم من الحكماء وأظنك عند سماع كلمة حكيم يتبادر إلى ذهنك لقمان الحكيم ، نعم إنه لقمان [١] الحكيم (كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، قال أخرج أطيب مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء اللّه ، ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها ، فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا) [٢] .

قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ [٣] فأي قلب هذا ؟

يقول ابن قيم الجوزية في كتابه « الفوائد » (صفحة ٢٧) يقول : إن القلب قلبان قلب هو عرش الرحمن ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير . وقلب هو عرش الشيطان فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم فهو حزين على ما مضى ، مهموم بما يستقبل ، مغموم في الحال . قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا دخل النور القلب**

(١) انظر ابن كثير في تفسيره (٤٤٤/٣) حيث يقول فيه :
اختلف السلف في لقمان هل كان نبيًا أو عبدًا صالحًا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني ، وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال كان لقمان عبدًا حبشيًا نجارًا ، وقال قتادة عن عبد اللّه بن الزبير قلت لجابر بن عبد اللّه : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال كان قصيرًا أفطس الأنف من النوبة ، وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه اللّه الحكمة ومنعه النبوة ، وقال الأوزاعي : حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب ولقمان الحكيم .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) ق : ٣٧ .

انفسح وانشرح »، قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: « **الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله** »[1]. اهـ.

فأي القلبين تفضل أيها القارئ الكريم؟ طبعًا الجواب معروف لدى كل عاقل لبيب وأحسبك كذلك. سوف نتحدث معك عن القلبين معًا طمعًا في القلب الأول، وتحذيرًا من القلب الثاني، ومن منا لا يطمع أن يكون له قلب كالقلب الأول؟

لقد وصف ابن قيم الجوزية القلب الأول بشعور داخلي في القلب فقال: ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة، فهل لهذا الشعور الداخلي انعكاسات خارجية؟ نعم لقد أجاب ابن القيم علىهذا السؤال في وصفه لهذا القلب حيث قال: وذخائر الخير، فما ذخائر الخير هذه التي يتصف بها صاحب هذا القلب؟ وقبل الإجابة على السؤال تعال لنعرض أسباب صلاح القلب، فمن أسباب صلاحه:

(١) الإقبال على الله وتلاوة كتابه وتدبره والاشتغال بذكره قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[2].

(٢) مجالسة الصالحين ومخالطتهم والاقتداء بهم.

(٣) الاستماع إلى المواعظ والتذكير والمحافظة على صلاة الجمعة والجماعة.

وبعد ذكر أسباب صلاح القلب، تعال للإجابة على السؤال: إننا لا نستطيع أن نحصر كل هذه الذخائر وكل هذه الثمار فهي كثيرة جدًّا، لكننا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مثلًا:

الرحمـــــــة:

هي رقة في القلب وحساسية في الضمير وإرهاف في الشعور.. تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، والعطف عليهم. وكفكفة دموع أحزانهم وآلامهم.. وهي التي تهيب بالمؤمن أن ينفر من الإيذاء وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين.

ولقد جعل رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه رحمة الناس بعضهم بعضًا لرحمة الله

---

(١) رواه الترمذي وغيره.

(٢) الرعد: ٢٨.

إياهم، فقد أخرج الترمذي وأبو داود وأحمد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**».

وحكم ﷺ على العارين من الرحمة بأنهم هم الأشقياء، فقد روى الترمذي وأبو داود وغيرهما عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**». ورحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين، وإنما هو ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعًا، وقد قال رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه مرة - فيما رواه الطبراني -: «**لن تؤمنوا حتى ترحموا**»، قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: «**إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة**».

بل هي رحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم: فالمؤمن وحده هو الذي يرحمه، ويتقي الله فيه، ويعلم أن الله سبحان سيحاسبه ويسأله إذا قصر في حقه أو تسبب في إيذائه، وقد أعلن النبي ﷺ أن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض. ورأى عمر رضي الله عنه رجلًا يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له: ويلك قدها إلى الموت قودًا جميلًا.

وإليكم بعض النماذج من آثار الرحمة في المجتمع الإسلامي: يروي المؤرخون:

هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان معروفًا في الجاهلية بالشدة والقسوة.. فلما فجَّر الإسلام ينابيع الرحمة في قلبه.. كان يرى نفسه مسئولًا أمام الله عن بغلة عثرت بأقصى العراق لأنه لم يُعَبِّد لها الطريق.

وهذا أبو بكر رضي الله عنه يودِّع جيش أسامة بن زيد ويوصيهم قائلًا:

لا تقتلوا امرأة ولا شيخًا ولا طفلًا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، وستجدون رجالًا فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما أفرغوا أنفسهم له..

فعلى هذه المعاني النبيلة من الرحمة يجب أن نُعَوِّدَ قلوبنا.

الإيثـــــار:

وهو شعور نفسي يترتب عليه تفضيل الإنسان غيره على نفسه في الخيرات والمصالح

الشخصية النافعة ..، والإيثار خلق نبيل إذا قصد به وجه اللّٰه تعالى ، كان من أول الأصول النفسية على صدق الإيمان ، وصفاء السريرة ، وطهارة النفس .. وهو في الوقت نفسه دعامة كبيرة من دعائم التكافل الاجتماعي ، وتحقيق الخير لبني الإنسان .. وحسبنا أن القرآن الكريم سجل للأنصار - وهم جمهور المجتمع الإسلامي بها - هذه الصور الراقية من صور الإخاء والمواساة والإيثار والنبل والتعاطف .. فقال : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] .

هذا الإيثار الطوعي والتعاطف الاجتماعي الذي تجلى في أخلاق الأنصار لن تجد له مثيلًا في تاريخ البشرية ، وفي أخبار الأمم ..، لقد شارك الأنصار إخوانهم المهاجرين الذي أُضطهدوا في دينهم ، وأُخرجوا من ديارهم ، وأضحوا لا يملكون شيئًا من متاع الحياة وزينتها ..، لقد كان الأنصاري يؤاخي المهاجر ويناصره ، بل ويؤثره على نفسه في كثير من حظوظ الحياة ، وإذا مات أحدهما ورثه الآخر .، وإليكم بعض الصور من مظاهر الإيثار في المجتمع الإسلامي الأول :

ذكر الغزالي في « الإحياء » عن ابن عمر رضي اللّٰه عنهما قال : أهدي إلى رجل من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ رأس شاة فقال : فلان أحوج إليه مني ، فبعث به إليه ، فبعث هو أيضًا إلى آخر يراه أحوج منه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة .

ومن عجائب الإيثار ما ذكره العدوي - كما روى القرطبي - حين قال : (انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فإذا برجل يقول : آه .. آه ! فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه .. آه ! فأشار هشام أن انطلق إليه فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات ، ولم يشرب أحد الماء لإيثار كل

---

(١) الحشر : ٩ .

واحد منهم صاحبه).

فعلى هذة المعاني الكريمة من الإيثار والتضحية ونكران الذات يجب أن نعود قلوبنا.

العفـــو:

هو شعور نفسي نبيل يترتب عليه التسامح والتنازل عن الحق مهما كان المعتدي ظالمًا وجائرًا .. بشرط أن يكون المعتدى عليه قادرًا على الانتقام، وأن لا يكون الاعتداء على كرامة الدين، ومقدسات الإسلام... وإلا .... كان العفو ذلة ومهانة واستسلامًا وخضوعًا ...، والعفو بهذا المعنى وبهذه الشروط شيمة خلقية أصيلة تدل على إيمان راسخ، وأدب إسلامي رفيع ...، فلا عجب أن نرى القرآن العظيم يأمر به، ويحض عليه في أكثر من آية في كتاب الله عز وجل:

﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم ...﴾[1].

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا﴾[3].

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[4].

ومن المعلوم بداهة أن قلب المؤمن حينما يكون متخلقًا بأخلاق الحلم والعفو والتسامح .. فإنه يكون مثلًا يحتذى في الملاطفة وسمو الخلق، ولين الجانب، وحسن المعشر..، بل يكون كالملك يمشي على الأرض نبلًا وطهرًا وصفاء، وإليكم بعض الصور والنماذج في الحلم والعفو والسماحة في سيرة السلف عبر التاريخ:

قال عبد الله بن طاهر: كنت عند المأمون يومًا، فنادى بالخادم: يا غلام، فلم يجبه

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) الفرقان: ٦٣.

(٤) آل عمران: ١٣٤.

أحد، ثم نادى ثانيًا وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول: أما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب؟ كلما خرجنا من عندك تصيح: يا غلام، يا غلام، إلى كم يا غلام؟!.. فنكس المأمون رأسه طويلًا - فما شككت في أن يأمرني بضرب عنقه - ثم نظر إليَّ، فقال: يا عبد اللَّه، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه، ساءت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسّن أخلاق خدمنا..!!

ومما يروى أن زين العابدين بن الحسين رضي اللَّه عنهما استدعى غلامًا له، وناداه مرتين فلم يجبه، فقال له زين العابدين: أما سمعت ندائي؟ فقال: بلى، قد سمعت قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت منك، وعرفت طهارة أخلاقك فتكاسلت، فقال: الحمد للَّه الذي أمن مني غلامي!..، ومما يروى عنه أيضًا أن خرج مرة إلى المسجد فسبه رجل، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه، فنهاهم زين العابدين وقال لهم: كفوا أيديكم عنه، ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا، أنا أكثر مما تقول، وما لا تعرفه مني أكثر مما عرفته، فإن كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك، فخجل الرجل واستحيا، فخلع زين العابدين قميصه، وأمر له بألف درهم، فمضى الرجل وهو يقول: أشهد أن هذا الشاب ولد رسول اللَّه ﷺ.

ومما يروى عنه كذلك أن غلامه كان يصب له الماء بإبريق مصنوع من خزف (من طين) فوقع الإبريق على رِجْلِ زين العابدين فانكسر، وجرحت رجله، فقال الغلام على الفور: يا سيدي يقول اللَّه تعالى: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾، فقال زين العابدين: لقد كظمت غيظي، ويقول: ﴿**والعافين عن الناس**﴾، فقال: لقد عفوت عنك، ويقول: ﴿**واللَّه يحب المحسنين**﴾، قال زين العابدين: أنت حر لوجه اللَّه!!..

فعلى هذه الفضائل من الحلم والتسامح والعفو يجب أن نعود قلوبنا!!

الجـــرأة:

هي قوة نفسية رائعة يستمدها المؤمن من الإيمان بالواحد الأحد الذي يعتقده، ومن الحق الذي يعتنقه، ومن الخلود الذي يوقن به، ومن القدر الذي يستسلم إليه، ومن المسئولية التي يستشعر بها، ومن التربية التي ينشأ عليها..، وعلى قدر نصيب المؤمن من الإيمان باللَّه الذي

لا يُغْلَب ، وبالحق الذي لا يخذل ، وبالقدر الذي لا يتحول ، وبالمسئولية التي لا تكل ، وبالتربية التي لا تمل .. بقدر هذا كله يكون نصيبه من قوة الشجاعة والجرأة وقول كلمة الحق ...، ونرى هذا بارزًا في شخصية أبي بكر - رضي الله عنه - الذي كان أرجح المؤمنين إيمانًا بعد رسول الله ﷺ ، فقد تمثل إيمانه في مواقف جعلت عمر القوي الشديد يقول عنه : (والله لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح إيمان أبي بكر ...) موقفه : يوم توفي الرسول صلوات الله وسلامه عليه فذهل المسلمون ، وأخرجتهم الفجيعة عن وعيهم ورشدهم ، حتى روي أن عمر قال : من قال : إن محمدًا مات ضربت عنقه بسيفي هذا !. هناك وقف أبو بكر - رضي الله عنه - يؤذن في الناس بصوت جهير ويقول : (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) وتلا قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[1] .

وإليكم بعض الأمثلة الحية من مواقفهم البطولية :

من مواقف العز بن عبد السلام أنه قال مرة لسلطان مصر (نجم الدين أيوب) وكان في مجلس حافل برجال الدولة : يا أيوب !.. ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال : هل جرى هذا؟ فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور، وتستباح فيها المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، فقال : هذا أنا ما علمته ، هذا من زمان أبي ، فقال العز بن عبد السلام : أنت من الذين يقولون : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[2] ، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة وإغلاقها ..

وكان سلمة بن دينار المكنى بأبي حازم يدخل على معاوية ، فيقول : السلام عليك أيها الأجير ، فإذا حاولوا أن يقولوا لأبي حازم قل : السلام عليك أيها الأمير ، أبى عليهم ذلك ، ثم التفت إلى معاوية فقال له : (إنما أنت أجير هذه الأمة ، استأجرك ربك لرعياتها)[3] .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ . (٢) الزخرف : ٢٣ .

(٣) هذا الموقف ذكره ابن تيمية لأبي مسلم الخولاني في كتابه « السياسة الشرعية » .

وإليكم هذه المحاورة التي جرت بينه وبين سليمان بن عبد الملك :

قال سليمان : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال : لأنكم خربتم آخرتكم ، وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . قال سليمان : فكيف القدوم غدًا على اللّه؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالعبد الآبق يقدم على مولاه(١) .

ومما يتصف به القلب الطيب الصالح « الصبر » .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾(٣) .

قال رسول اللّه ﷺ : « **ومن يتصبر يصبره اللّه وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر** »(٤) .

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له** »(٥) .

وعن أبي يحيى أسيد بن حضير – رضي اللّه عنه – أن رجلًا من الأنصار قال : يا رسول اللّه ألّا تستعملني كما استعملت فلانًا ، فقال : « **إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض** »(٦) .

والصبر حبس النفس عن التسخط بالمقدور وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة ، واستحالت البلية عطية ، وصار

---

(١) تربية الأولاد في الإسلام (١/٣٦٥ – ٣٨٠) لعبد اللّه ناصح علوان .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .
(٣) البقرة : ١٥٥ .

(٤) البخاري (٣/٢٦٥) ، و(١١/)٢٦ – ومسلم (١٠٥٣) .

(٥) رواه مسلم .
(٦) رواه البخاري ومسلم .

المكروه محبوبًا ، فإن اللَّه سبحانه وتعالى لم يبتلِه ليهلكه وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن للَّه تعالى على العبد عبودية في الضراء كما له عبودية في السراء ، وله عبودية فيما يكره كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون ، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند اللَّه تعالى .

فالوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية ، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية ، ونفقته في الضراء عبودية ، ولكن فرق عظيم بين العبوديتين ، فمن كان عبدًا للَّه في الحالتين قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب ، فذلك الذي تناوله قوله تعالى : ﴿ **أليس اللَّه بكافٍ عبده** ﴾[1] ، وفي القراءة الأخرى ﴿ **عباده** ﴾ وهما سواء ، لأن المفرد مضاف فيعم عموم الجمع ، فالكناية التامة مع العبودية التامة والناقصة ، مع الناقصة فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان ، قال تعالى : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾[2] .

ولما علم عدو اللَّه إبليس أن اللَّه تعالى لا يسلم عباده إليه ولا يسلطه عليهم قال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **ولقد صَدَّق عليهم إبليسُ ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين ، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك** ﴾[4] ، فلم يجعل لعدوه سلطانًا على عباده المؤمنين فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه ، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل الغافل فهذا لا بد منه ، لأن العبد قد بلي بالغفلة والشهوة والغضب ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة ولو احترز العبد ما احترز فلا بد له من غفلة ولا بد له من شهوة ولا بد له من غضب ، لقد كان آدم أبو البشر ﷺ من أحلم الخلق وأرجحهم عقلًا وأثبتهم ، ومع هذا فلم يزل به عدو اللَّه حتى أوقعه فيما أوقعه فيه ، فما الظن بمن عقله في جنب عقل أبيه كتَفلة في بحر ، ولكن عدو اللَّه لا يخلص إلى المؤمن إلا غيلة على غرة

---

(١) الزمر : ٣٦ .
(٢) الإسراء : ٦٥ .
(٣) ص : ٨٢ - ٨٣ .
(٤) سبأ : ٢٠ - ٢١ .

وغفلة فيوقعة ويظن أنه لا يستقبل ربه عز وجل بعدها وأن تلك الوقعة قد اجتاحته وأهلكته وفضل اللّه تعالى ورحمته وعفوه ومغفرته وراء ذلك كله ، فإذا أراد اللّه بعبده خيرًا فتح له من أبواب (التوبة) والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجوء إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته حتى يقول عدو اللّه : يا ليتني تركته ولم أوقعه ، وهذا معنى قول بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ، ويعمل الحسنة يدخل بها النار ، قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مشفقًا وَجِلًا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك سبب دخوله الجنة ، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول : فعلت وفعلت فيورثه من العجب والتكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه ، فإذا أراد اللّه تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده ، وإن أراد به غير ذلك خلّاه وعجبه وكبره ، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه ، فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك اللّه تعالى إلى نفسك والخذلان أن يكلك اللّه تعالى إلى نفسك ، فمن أراد اللّه به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجوء إلى اللّه تعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده .

فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادًا فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾[1] ، قال :

(١) الفرقان : ٦٣ .

حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا ، وعن مجاهد في آية : ﴿ **وإذا مروا باللغوا مروا كرامًا** ﴾[1] أي إذا أوذوا صفحوا ، وعن علي - رضي اللَّه عنه - (ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن لا تباهي الناس بعبادة اللَّه ، وإذا أحسنت حمدت اللَّه تعالى ، وإذا أسات استغفرت اللَّه تعالى) ، وقال أكثم : (دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر) ، وقال معاوية : لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ، وقال معاوية لعمرو بن الأهشم : أي الرجال أشجع ؟ قال : من رد جهله بحلمه ، وقال : أي الرجال أسخى ؟ قال : من بذل دنياه لصلاح دينه ، وقال معاوية لعرابة : بم سدت قومك ؟ قال : كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ، وأسعى في حوائجهم ، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصر عني فأنا خير منه ، وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾[2] ، هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : وإن ... كنت كاذبًا فغفر اللَّه لك فإن كنت صادقًا فغفر اللَّه لي ، وعن علي بن الحسين - رضي اللَّه عنهما - أنه سبه رجل فوصى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جُمع له خمس خصال محمودة : الحلم ، وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يبعده من اللَّه عز وجل ، وحمله على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذم ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير .

أخي القارئ الكريم : ليت كل قلوب العباد مثل هذه القلوب ، رحمةً وعطفًا وعفوًا وإيثارًا وصبرًا وحلمًا ، لو كانت كذلك لخلق اللَّه جنة لم يخلق نارًا ، ولكن ما خلق اللَّه الجنة إلا ولها ملؤها وما خلق النار إلا ولها ملؤها ، فاحرص يا عبد اللَّه أن تكون من خلق الجنة لا من خلق النار ، إن أردت ذلك فكن من أصحاب القلوب الطيبة والتي من صفات أصحابها ما ذكرناه آنفًا ، ولا تكن من أصحاب القلوب الخبيثة والعياذ باللَّه ، فيا ترى ما الأسباب التي أدت إلى خبث القلوب ؟ :

١- أكل الحرام ، فإن المطعم الخبيث يغذي تغذية خبيثة .

---

(١) الفرقان : ٧٢ .
(٢) فصلت : ٣٤ ، ٣٥ .

٢- فعل المعاصي ما ظهر منها وما بطن، قال تعالى: ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾[1].

٣- استماع ما لا يجوز استماعه من الكلام المحرم والأغاني.

٤- النظر المحرم، قال الرسول ﷺ: « **النظر سهم مسموم من سهام إبليس** »[2].

وأحسبك الآن تريد الجواب على سؤالك بما تخبث القلوب؟ حتى نتجنبها ونحذر منها. نقول لك إن أول الصفات الخبيثة وأعظمها خطرًا على العبد هي الكبر والعجب.

باب تحريم الكبر والإعجاب:

قال اللَّه تعالى: ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين** ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحًا** ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحًا إن اللَّه لا يحب كل مختال فخور** ﴾[5]. ومعنى ﴿ **تصعر خدك للناس** ﴾ أي: تميله وتعرض به عن الناس تكبرًا عليهم، و (المرح) التبختر. وقال تعالى: ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن اللَّه لا يحب الفرحين** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ الآيات[6].

وعن عبد اللَّه بن مسعود - رضي اللَّه عنه -، عن النبي ﷺ قال: « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** » فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة؟ قال: « **إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس** »[7].

بطر الحق: دفعه ورده على قائله، وغمط الناس: احتقارهم.

وعن سلمة بن الأكوع - رضي اللَّه عنه - أن رجلًا أكل عند رسول اللَّه ﷺ بشماله، فقال: « **كل بيمينك** » قال: لا أستطيع! قال: « **لا استطعت** » ما منعه إلا الكبر. قال:

---

(١) المطففين: ١٤. (٢) رواه الإمام أحمد. (٣) القصص: ٨٣.

(٤) الإسراء: ٣٧. (٥) لقمان: ١٨. (٦) القصص: ٧٦ - ٨١.

(٧) مسلم (١١)، وأخرجه أبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٩).

فما رفعها إلى فيه[1].

وعن حارثة بن وهب - رضي اللَّه عنه - قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر**»[2].

وعن أبي سعيد الخدري - رضي اللَّه عنه -، عن النبي ﷺ قال: «**احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فِيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فِيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى اللَّه بينهما: إنك الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي، أعذب بك من أشاء، وكليكما عليَّ ملؤها**»[3].

وعن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا ينظر اللَّه يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا**»[4].

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»[5].
العائل: الفقير.

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال اللَّه عز وجل: العز إزاري والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته**»[6].

وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي في حُلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف اللَّه به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[7].
«مرجل رأسه» أي ممشطه. «يتجلجل» بالجيمين: أي يغوص وينزل.

وعن سلمة بن الأكوع - رضي اللَّه عنه - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يزال الرجل**

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢١).
(٢) البخاري (٨/٥٠٧، ٥٠٨) و(١٠/٤٠٨)، ومسلم (٢٨٥٣).
(٣) رواه مسلم (٢٨٤٧).
(٤) البخاري (١٠/٢١٩، ٢٢٠)، ومسلم (٢٠٨٧)، وأخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٩١٤).
(٥) رواه مسلم (١٠٧).
(٦) رواه مسلم (٢٦٢٠)، وأخرجه أبو داود (٤٠٩٠).
(٧) البخاري (١٠/٢٢١، ٢٢٢)، ومسلم (٢٠٨٨).

يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم»[1] وقال: حديث حسن.
يذهب بنفسه: أي يرتفع ويتكبر.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خُلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح، وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»؟ وإنما صار حجابًا دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأن المتكبر لا يقدر على أن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين، ولا يقدر على ترك الحقد، ولا يقدر أن يدوم على الصدق، ولا يقدر على ترك الغضب، ولا يقدر على كظم الغيظ، ولا يقدر على ترك الحسد، ولا يقدر على النصح اللطيف، ولا يقدر على قبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم، وبالجملة فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا مَن أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه، وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين والتي سبق ذكرها. ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره - ولذلك شرح رسول اللَّه ﷺ الكبر بهاتين الآفتين بقوله: «**الكبر بطر الحق وغمط الخلق**» أي ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد اللَّه أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى وبطر الحق هو رده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر ونازع اللَّه حقه.

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع اللَّه تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله

---

(١) الترمذي (٢٠٠١)، وفي سنده عمر بن راشد اليمامي وهو ضعيف.

أن يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت ، وما أعظم تهدفه للخزي والنكال ، وما أشد استجراءه على مولاه ، وما أقبح ما تعاطاه ، فالخلق كلهم عباد اللّه ، وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبر على عبد من عباد اللّه قد نازع اللّه في حقه . ووجه الآفة الثانية : أن من سمع الحق من عبد من عباد اللّه واستنكف عن قبوله وتشمر بجحده ، فما ذاك إلا للترفع والتعاظم واستحقار غيره حتى يأبى أن ينقاد له ، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين ، إذ وصفهم اللّه تعالى فقال : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾[1] ، فكل من يتضح له الحق على لسان أحد ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والإقحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به ، فقد شاركهم في هذا الخلق ، وكذلك من تحمله الأنفة على عدم قبول الوعظ ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل له اتق اللّه أخذته العزة بالأثم فحسبه جهنم** ﴾[2] .

تحريم *الحسد* :

وهو تمني زوال النعمة عن صاحبها : سواء كانت نعمة دين أو دنيا ، قال اللّه تعالى : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله** ﴾[3] .

وعن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – أن النبي ﷺ قال : « **إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، أو قال : العشب** »[4] .

ذم *الحسد* :

اعلم أن الحسد أيضًا من نتائج الحقد الذميم ، وللحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى ، وقد ورد في ذمه أخبار كثيرة ، منها قوله ﷺ : « **الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب** »[5] ، وقوله : « **لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد اللّه إخوانًا كما أمركم اللّه** »[6] .

ومن الآثار قول بعض السلف : إن أول خطيئة كانت هي الحسد – حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته – فأبى أن يسجد له ، فحمله الحسد على المعصية ، وعن ابن سيرين

---

(١) فصلت : ٢٦ . (٢) البقرة : ٢٠٦ . (٣) النساء : ٥٤ .

(٤) رواه أبو داود (٤٩٠٣) . (٥) ابن ماجه في « الزهد » : ٣٣ . (٦) رواه مسلم .

رحمه اللّٰه : « ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا وهي حقيرة في الجنة ، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار » ، وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلًّا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضًا ، ولا ينال من الخلق إلا جزعًا وغمًّا ، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالًا .

أسباب الحسـد :

للحسد المذموم مداخل كثيرة وأسباب عدة (فمنها) العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد ، والحقد يقتضي منه التشفي والانتقام ، فإن عجز المتنغص عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند اللّٰه تعالى فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة اللّٰه على بغضه وأنها لأجله . ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك ، لأنه ضد مراده وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند اللّٰه حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه ، بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعدواة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقي أن يبغي وأن يكره ذلك من نفسه . (منها) التعزز وهو أن يقل عليه أن يترفع عليه غيره . (ومنها) حب الرياسة وطلب الجاه بأن يكون منفردًا عديم النظير غير مشارك في المنزلة يسوءه وجود مناظر له في المنزلة . (ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد اللّٰه بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد فيما أنعم عليه ، ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد واضطراب أموره وتنغص عيشه ، فهو أبدًا يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة اللّٰه على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه ، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع . ومعالجته شديدة ، لأنه خبث في الجبلة (والجبلة : الطبع والسجية) لا عن عارض حتى يتصور زواله ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب وأكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة بل ينتهك حجاب المجاملة ، وتظهر العداوة

بالمكاشفة، أعاذنا المولى من ذلك بلطفه وكرمه.

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب:

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تدواى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقًا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة، أما كونه ضررًا عليك في الدين فهو إنك بالحسد سخطت قضاء اللّٰه تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته، وهذه جناية في حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان وناهيك بهما جناية على الدين، وقد انضاف إلى ذلك أنك فارقت أولياءه وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت إبليس والكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب، وأما كونه ضررًا في الدنيا فهو أنك تتألم بجسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في هم وغم إذ أعداؤك لا يخليهم اللّٰه تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف، فتبقى مغمومًا ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهي لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدًا ولا تزول النعمة عن المحسود بحسده، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلًا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة، فما أعجب ممن يتعرض لسخط اللّٰه من غير نفع يناله، بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير مجدوى ولا فائدة، وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا، فلواضح، أما منفعته في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك

الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح وهتك ستره وذكر مساوئه فهذه هدايا تهديها إليه إذ تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسًا محرومًا كما حرمت في الدنيا من النعمة ، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة ، وينتفع به عدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذمومًا عند الخالق والخلائق شقيًّا في الحال والمآل ونعمة المحسود شئت أم أبيت دائمة باقية ، ومن تفكر في هذا بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه ، وأما العمل النافع فيه فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد وذلك بالتواضع للمحسود والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة فتعود القلوب إلى التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض ، فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعةِ جدًّا إلا أنها مرة على القلوب جدًّا ، ولكن النفع في الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء ، وإنما تهون مرارة هذا الدواء – أعني التواضع للأعداء والتقرب إليهم بالمدح والثناء – بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء اللّٰه تعالى .

معنى الحقد ونتائجه الوخيمة :

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدًا ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى ، والحقد ثمرة الغضب ، والحقد يثمر أمورًا منكرة (الأول) الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به ، وهذا من فعل المنافقين ، (الثاني) أن يزيد على إضمار الحسد في الباطن فيشمت بما أصابه من البلاء ، (الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك ، (الرابع) وهو دونه أن تعرِض عنه استصغارًا له ، (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة ، وإفشاء سر وهتكِ ستر وعورة ، (السادس) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه ، (السابع) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه ، (الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام ، وأقل درجات الحقد لو احترز عن هذه الآفات الثمانية أن يترك البشاشة أو الرفق ، والعناية والقيام بحاجاته ، أو المعاونة على المنفعة له ، وكله مما

ينقص الدرجة في الدين، ويفوت الثواب الجزيل. ولما حلف أبو بكر - رضي اللَّه عنه - أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لأمر ما نزل قوله تعالى: ﴿**ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى**﴾ إلى قوله: ﴿**ألا تحبون أن يغفر اللَّه لكم**﴾(١) فقال أبو بكر: نعم نحب ذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه(*)، والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدًا للنفس وإرغامًا للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين.

وقلب المؤمن لا يحمل الحقد، فالقلب الذي لا يحمل الحقد ليس لصاحبه جزاء إلا الجنة، بينما الرسول ﷺ بين أصحابه في المسجد قال: «**سيدخل عليكم رجل من أهل الجنة**»، فدخل رجل من عامة الناس من الأنصار تقطر لحيته من أثر وضوئه حاملًا حذاءه بيده، وفي اليوم الثاني قال الرسول ﷺ: «**سيدخل عليكم رجل من أهل الجنة**» فدخل نفس الرجل، وفي اليوم الثالث قال مثل ما قال في اليوم الثاني فدخل نفس الرجل، وعندما انصرف الناس لحق بالرجل عبد اللَّه بن عمر - رضي اللَّه عنه - فقال للرجل: حدثت بيني وبين أبي خصومة فرأيت أن أبقى عندك ثلاث ليالٍ ريثما يفتر الغضب عن أبي، وعندما أمضى الليالي الثلاثة قال له عبد اللَّه: واللَّه ما كانت بيني وبين أبي خصومة ولكن الذي حدا بي أن ألحق بك وأبيت عندك هو شهادة الرسول ﷺ لك بالجنة، وإني رأيتك ما عملت كثير عمل فأخبرني ما العمل الذي شهد لك الرسول ﷺ بسببه بأن لك الجنة؟ قال: العمل ما رأيت إلا وأني لا أنام حتى أشهد اللَّه بأني قد عفوت عمن ظلمني، فلا أبيت ليلتي حاملًا حقدًا على أحد، فقال عبد اللَّه بن عمر: الآن عرفت ما العمل الذي كان سببًا لدخولك الجنة(٢) أو كما جاء في الحديث.

أخي القارئ الكريم: عند البدء في حديثنا عن القلب واللسان عمومًا إذا كنت تذكر ذلك بدأنا بقول لقمان الحكيم عنهما وبأنهما أي القلب واللسان أطيب عضوين إذ طابا وأخبث عضوين إذا خبثا، ثم بعد ذلك أخذنا معك بالتفصيل فبدأنا بالقلب لكي نؤكد ما قال لقمان الحكيم، إن خالجك الشك في ذلك فاستشهدنا على القلب بحديث الرسول

(١) النور: ٢٢. (٢) رواه أحمد وغيره. (*) انظر ابن كثير ٢٧٧/٣.

ﷺ وهو قوله : « **ألا وإن في الجسد مضغة .....** » إلخ وقد ذكرنا في حديثنا عن هذا العضو المهم بما يطيب القلب وبما يخبث ، وحتى يكتمل الموضوع موضوع القلب واللسان تعال إلى الحديث عن الطرف الثاني ألا وهو اللسان .

اعلم أخي القارئ الكريم : أن أعمال العباد باطنة وظاهرة ولا يكون المؤمن مؤمنًا كامل الإيمان إلا إذا جمع بينهما ، فعمل الباطن أي عمل القلب قد علمت خيره وشره ، فتعال لتعرف عمل الظاهر وهو المتمثل بالجوارح والمتصرف فيها هو اللسان « **إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول : اتق اللّه فينا فإنما نحن بك ، فإنك إن استقمت استقمنا وإذا اعوججت اعوججنا** »(1) .

إذن اللسان هو ملك الجوارح فبم يستقيم ؟

اعلم أخي القارئ الكريم : أنه لا يستقيم اللسان إلا بالذكر ، فما فضل الذكر ؟

فضل الذكر :

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللّه ذكرًا كثيرًا** ﴾(2) ، وقال تعالى : ﴿ **والذاكرين اللّه كثيرًا والذاكرات** ﴾(3) ، وقال تعالى : ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا اللّه كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا** ﴾(4) .

في « مسند الإمام أحمد » عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، عن زياد بن أبي زياد مولى عبد اللّه بن عباس بن أبي ربيعة أنه بلغه عن معاذ بن جبل قال : قال رسول ﷺ : « **ما عمل آدمي عملًا قط أنجى له من عذاب اللّه من ذكر اللّه عز وجل** » .

وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة قال : كان رسول اللّه ﷺ يسير في طريق مكة فهر على جبل يقال جمدان فقال : « **سيروا ، هذا جمدان سبق المفردون** » قيل : وما المفردون يا رسول اللّه ؟ قال : « **الذاكرون اللّه كثيرًا والذاكرات** » .

وقال أبو الدرداء رضي اللّه تعالى عنه : لكل شيء جلاء ، وإن جلاء القلوب ذكر اللّه عز وجل .

وفي الذكر أكثر من مائة فائدة ، منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

---

(1) رواه الترمذي في أبواب الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان .

(2) الأحزاب : ٤١ . (3) الأحزاب : ٣٥ . (4) البقرة : ٢٠٠ .

الأولى : أنه يرضي الرحمن عز وجل .

الثانية : أنه يزيل الهم والغم عن القلب .

الثالثة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الرابعة : أنه يقوي القلب والبدن .

الخامسة : أنه ينور الوجه والقلب .

السادسة : أنه يجلب الرزق .

السابعة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

الثامنة : أنه يورث حياة القلب ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية قدس اللّه تعالى روحه يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟

التاسعة : أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل ، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر اللّه تعالى وذكر أوامره ؛ تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر اللّه تعالى ، والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر اللّه ، صان لسانه عن الباطل واللغو ، ومن ييس لسانه عن ذكر اللّه تعالى ، ترطب بكل باطل ولغو وفحش ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

العاشرة : وفي الترمذي من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال : « **من قال سبحان اللّه وبحمده غرست له نخلة في الجنة** »[1] .

وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **لأن أقول : سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس** » .

فضيلة الصمت وهو حبس اللسان:

قال الرسول ﷺ : « **فليقل خيرًا أو ليصمت** »[2] . السكوت أو الصمت فهو أن يسكت عن ذكر عيوب أخيه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه ، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا

---

(١) حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري.

رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ، ولا يسأل فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه . ويسكت عن أسراره التي بثها إليه ولا يبثها إلى غيره البتة ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئًا منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبَّك من بلَّغك . ولا ينبغي أن يخفي ما سمع من الثناء عليه ، فإن السرور أولًا به يحصل من المبلغ للممدوح ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد ، وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلًا إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت ، فإذ ذاك لا يبالي بكراهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق ، وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر . أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوئ أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ، ويزجرك عنه أمران :

(أحدهما) أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئًا واحدًا مذمومًا فهون على نفسك ما تراه من أخيك ، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة ، كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأي الرجال المهذب .

إذا رمت أن تحيا سليمًا من الردى ⁂ ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوأة ⁂ فكلك سوءات وللناس ألسن

(والأمر الثاني) أن تعلم أنك لو طلبت منزهًا عن عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلًا ، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهى ، كفى المرء نبلًا أن تعد معايبه . فالمؤمن الكريم أبدًا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام . وأما المنافق اللئيم فإنه أبدًا يلاحظ المساوئ والعيوب . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات ، وقال الفضيل : الفتوة : العفو عن زلات الإخوان . وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوت بقلبك ، وذلك بترك إساءة الظن ، فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضًا ، وحده أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن يحمل

على وجه خير. فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة، فاحمله على سهو ونسيان إن أمكن، وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، والتجسس في تطلع الأخبار، والتحسس بالمراقبة بالعين فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين.

واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الإخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين وهو الحقد والحسد، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره خطر؛ وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله، (ومن ذلك) أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه، وله أن ينكره وإن كان ذنبًا كاذبًا فليس الصدق واجبًا في كل مقام، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه، فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن، هذا حقيقة الأخوة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة**»(٢)، وقال: «**الحديث بينكم أمانة**»(٣).

قيل لبعضهم: كيف حفظك السر؟ قال: أنا قبره فإن صدور الأحرار قبور الأسرار، وأفشى بعضهم سرًا له إلى أخيه ثم قال له: حفظت؟ قال: بل نسيت. وقال العباس لابنه عبد الله: إني أرى هذا الرجل - يعني عمر رضي الله عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ مني خمسًا: لا تفشين له سرًا، ولا تغتابن عنده أحدًا، ولا يجربن عليك كذبًا، ولا تعصين له أمرًا، ولا يطلعن منك على خيانة. فقال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف، (ومن ذلك) السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك، قال ابن عباس: لا تمار سفيهًا فيؤذيك، ولا حليمًا فيقليك، وقد قال ﷺ: «**من ترك المراء وهو محق بني له بيت في ربض الجنة**»(٤). وقد قيل: ثواب النفل أعظم لأن

---

(١) البخاري في المظالم.

(٢) رواه أبو داود حديث ٤٨٤٧.

(٣) ذكره في «الإحياء» ٩/ ١٥٧٩.

(٤) رواه أبو داود ٤٧٧٩.

السكوت على الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل، وإنما الأجر على قدر النصب، وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمناقشة؛ فإنها عين التدابر والتقاطع، فإن التقاطع يقع أولًا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان، وقال عليه السلام: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يغتب بعضكم بعضًا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(١)، وقد قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله، بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(٢)، وأشد الاحتقار المماراة، فإن من رد على غيره كلامًا فقد نسبه إلى الجهل أو الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش، وقال بعض السلف: من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته، وقال غيره: إياك ومماراة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم، قال الحسن: لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل.

وعلى الجملة: فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحمق والجهل، ولا معنى للمعاداة إلا هذا، فكيف تضام الأخوة والمصافاة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**لا تمار أخاك وتمازحه ولا تعده موعدًا فتخلفه**»(٣). والمماراة مضادة لحسن الخلق. واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة.

فضيلة النطق:

كما يقتضي السكوت عن المكاره يقتضي أيضًا النطق بالمحاب، بل هو أخص بالأخوة؛ لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما يراد بالأخوة ليستفاد منهم لا ليخلص عن أذاهم، والسكوت معناه كف الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض، وإظهار شغل القلب بسببه، واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها، ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف

---

(١) البخاري ومسلم. (٢) مسلم. (٣) رواه الترمذي (حديث: ٢٠٦٣).

أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف ، والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين ، ومن ذلك أن تدعوه ، بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره ، قال عمر رضي اللّه عنه : (ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولًا ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه) ، ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله ، حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه ، وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ، ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه ، وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد ، ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك ، بل على نيته وإن لم يتم ذلك . وأعظم من ذلك تأثيرًا في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض ، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه ، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ، ومنفر للقلب ، وتقصير في حق الأخوة ، وإهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه ، فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفاع عنك ، وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ، ولذلك شبهه اللّه تعالى بأكل لحوم الميتة ، فقال : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا** ﴾[1] ، فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وعنت المتعنتين وأجب في عقد الأخوة ، وقال بعضهم : ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالسًا ، فقلت فيه ما يحب أن يسمع لو حضر ، ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيه إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ، فإن كنت غنيًا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك بالنصيحة ، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه ، ولكن ينبغي أن يكون

(١) الحجرات : ١٢ .

ذلك في سر لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو فضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، وقال الشافعي في ديوانه:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعه
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه

قال ذو النون: (لا تصحب مع اللّٰه إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة)، ولا تظنن أن في نصح أخيك إيحاشًا لقلبه، فإن في تنبيهه على ما لا يعلمه عين الشفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم، فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك، وقد همت بإهلاكك فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك، والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات، فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد، وهي مخلوقة من نار اللّٰه الموقدة، ولذلك كان عمر رضي اللّٰه عنه يستهدي ذلك من إخوانه ويقول: رحم اللّٰه امرأً أهدى إلى أخيه عيوبه، ومن كتاب بعض السلف لأخيه: اعلم أن من قرأ القرآن وآثر الدنيا لما آمن أن يكون بآيات اللّٰه من المستهزئين، وقد وصف اللّٰه تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين، إذ قال: ﴿**ولكن لا تحبون الناصحين**﴾[1]. وهذا في غيب هو غافل عنه، فأما ما يظهره فلابد من التلطف بنصحه بالتعريض مرة والتصريح أخرى إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاش، فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى، وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك، فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة، فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير

(١) الأعراف: ٧٩.

من المشافهة، والاحتمال خير من الكل[1].

فإنما نحن بك فإنك إن استقمت استقمنا وإذا اعوججت اعوججنا

عزيزي القارئ الكريم: لقد علمت فيما سبق بما يستقيم اللسان، فهل تعرف بما يعوج؟ يعوج اللسان بآفات اللسان، فما آفاته؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال سوف نروي لك بعض الأحاديث النبوية التي تحذرنا من خطر اللسان وهي كما يأتي:

١- حدثنا عبد الله، حدثنا داود بن عمرو الضبي، وسعدويه، عن عبد الله بن المبارك، عن يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال عقبة بن عامر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»[2].

٢- حدثنا عبد الله حدثنا عاصم بن عمر بن علي حدثني أبي عن أبي حازم المدني عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**»[3].

٣- حدثنا عبد الله حدثنا أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس حدثنا عبد الله بن إدريس

---

(١) المراجع:

أ- «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن قيم الجوزية صفحة ٥ - ٤٥.

ب- «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي، صفحة ١٤١ - ٢٨٣.

ج- «أمراض القلوب وشفاؤها» للشيخ عبد الله بن جابر الجار الله: ٤٦ - ٤٩.

ملاحظة: الآيات والأحاديث التي وردت في هذا الكتاب أعني إحياء العلوم غير موثقة قمنا بتوثيق الآيات وتخريج الأحاديث.

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده»: ٤١٣/٣، ومسلم مختصرًا في كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام: ٤٧/١.

(٣) رواه البخاري بنحوه في كتاب الرقاق باب حفظ اللسان: ١٢٥/٨.

أخبرني أبي وعمي عن جدي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «**الأجوفان: الفم والفرج**» (١).

٤- حدثنا عبد الله حدثنا يونس بن عبد الرحيم العسقلاني حدثنا عمرو بن أبي سلمة عن صدقة بن عبد الله عن عبيد الله بن علي عن سليمان بن حبيب حدثني أسود بن أصرم المحاربي رضي الله عنه قال: قلت: أوصني يا رسول الله، قال: «**أتملك يدك؟!**» قال: قلت: فما أملك إذا لم أملك يدي؟! قال: «**أتملك لسانك؟!**» قال: فما أملك إذا لم أملك لساني؟! قال: «**فلا تبسط يدك إلا إلى خير، ولا تقل بلسانك إلا معروفًا**» (٢).

٥- حدثنا عبد الله حدثنا أبو خيثمة وإسحاق بن إسماعيل قال: حدثنا جرير عن الأعمش عن الحكم بن عتيبة وحبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول: قال: «**ثكلتك أمك يا بن جبل، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!**» قال حبيب في هذا الحديث: وهل تقول شيئًا إلا لك أو عليك ..؟! (٣).

٦- حدثنا عبد الله، حدثنا علي بن الجعد أنبأنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب حدثني ابن غنم أن معاذًا رضي الله عنه قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فأخرج رسول الله ﷺ؟ لسانه ثم وضع عليه أصبعيه (٤).

٧- حدثنا عبد الله حدثني عبد الرحمن بن ريان بن الحكم الطائي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن عبد العزيز بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب

---

(١) رواه الترمذي في أبواب البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق (حديث ٢٠٧٢): ١٤٢/٦ .

(٢) رواه الهيثمي في كتاب الزهد باب ما جاء في الصمت وحفظ اللسان، وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن: ٣٠٠/١٠ .

(٣) رواه الترمذي مطولًا في أبواب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة: حديث ٢٧٤٩: ٣٦٢/٧ - ٣٦٥ .

(٤) ذكره في «الإحياء» وقال الحافظ العراقي: رواه الطبراني: *١٥٣٩/ .

رضي اللّٰه عنه اطلع على أبي بكر رضي اللّٰه عنه وهو يمد لسانه فقال: ما تصنع يا خليفة رسول اللّٰه ﷺ؟ فقال: إن هذا أوردني الموارد، إن رسول اللّٰه ﷺ قال: **«ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى اللّٰه اللسان على حدته»**[(1)].

٨- حدثنا عبد اللّٰه قال: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن منصور عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى عليه السلام: «طوبى على من بكى على خطيئته، وخزن لسانه، ووسعه بيته»[(2)].

٩- حدثنا عبد اللّٰه حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا جرير وأبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن عنبس بن عقبة التميمي قال: قال عبد اللّٰه ابن مسعود رضي اللّٰه عنه: والذي لا إله غيره ما على الأرض شيء أفقر - وقال أبو معاوية: أحوج - إلى طول سجن من لسان[(3)].

١٠- حدثنا عبد اللّٰه حدثنا عبيد اللّٰه بن عمر حدثنا سليم بن أخضر حدثنا ابن عوف حدثني عطاء البزاز عن أنس بن مالك رضي اللّٰه عنه قال: لا يتقي اللّٰه عز وجل رجل - أو أحد - حق تقاته حتى يخزن من لسانه[(4)].

١١- حدثنا عبد اللّٰه حدثنا أبو عمر التميمي حدثني أبي عن بكر النهشلي عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود رضي اللّٰه عنه أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيرًا تغنم، أو أنصت تسلم من قبل أن تندم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ قال: لا بل سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: **«إن أكثر خطايا**

---

(١) رواه الهيثمي بنحوه في كتاب «الزهد» باب ما جاء في الصمت وحفظ اللسان، وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح: ٣٠٢/١٠.

(٢) رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» من مواعظ عيسى عليه السلام ٥٥.

(٣) رواه الهيثمي في كتاب الزهد باب ما جاء في الصمت وحفظ اللسان وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات: ٣٠٣/١٠، ورواه أبو نعيم في «الحلية»: ١٣٤/١.

(٤) رواه الهيثمي في كتاب الزهد باب ما جاء في الصمت وحفظ اللسان عن أنس مرفوعًا بلفظ: (لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يخزن لسانه، قال الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»: وفيه داود بن هلال ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه ضعفًا، وبقية رجاله رجال الصحيح): ٣٠٢/١٠.

ابن آدم في لسانه »[1] .

١٢- حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا شعبة بن سوار عن المغيرة بن مسلم عن هشام بن إبراهيم عن ابن عمر رضي اللّٰه عنهما قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من كف لسانه ستر اللّٰه عز وجل عورته ، ومن ملك غضبه وقاه اللّٰه عز وجل عذابه ، ومن اعتذر إلى اللّٰه عز وجل قبل اللّٰه عذره »**[2] .

١٣- حدثنا عبد اللّٰه ، حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا عبد الواحد بن واصل أبو عبيدة الحداد ، حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال : قال عبد اللّٰه بن عمرو : دع ما لست منه في شيء ولا تنطق فيما لا يعنيك واخزن لسانك كما تخزن ورقك »[3] .

١٤- حدثنا عبد اللّٰه حدثنا علي بن الجعد ، أنبأنا المسعودي عن رجاء بن مهران عن الشعبي قال : قلت لعبد اللّٰه بن عمرو : حدثني ما سمعت من رسول اللّٰه ﷺ ودع الكتب فإني لا أعبأ بها شيئًا فقال : سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما كره ربه »**[4] .

١٥- حدثنا عبد اللّٰه حدثنا عبد الرحمن بن صالح ، حدثنا سفيان عن عبد اللّٰه ابن الربيع ابن خثيم عن بشير بن ذعلوق عن بكر بن ماعز عن الربيع بن خثيم قال : يا أبا بكر بن ماعز : اخزن لسانك إلا مما لك ومما عليك[5] .

١٦- حدثنا عبد اللّٰه ، حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا علي بن ثابت عن أبي الأشهب عن الحسن رضي اللّٰه عنه قال : « ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه »[6][7] .

---

(١) رواه الهيثمي في الكتاب والباب السابق بلفظ : (واسكت عن شر تسلم) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح : ٢٩٩/١٠ ، ٣٠٠ .

(٢) ذكره في « الإحياء » وقال الحافظ العراقي : إسناده حسن : ١٥٤/٨ .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » : ٢٨٨/١ .

(٤) رواه البخاري بنحوه في كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده : ٩/١ ، ١٠ .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » : ١٠٨/٢ .

(٦) رواه الإمام أحمد في كتاب « الزهد » : ٢٧١ .

(٧) « الصمت وحفظ اللسان » للحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا صفحة ٣٥ - ٤٥ بتصرف .

وبعد أن عرفت خطر اللسان من خلال قراءتك للأحاديث النبوية تعال إلى الإجابة على السؤال الذي بدأناه وهو قوله : فما آفات اللسان ؟

اعلم أخي القارئ الكريم : أن الخطر كل الخطر يتمثل فيما يتمثل في آفات اللسان ، وإليك جمل من آفات اللسان :

الأولى: الكلام فيما لا يعني:

اعلم أن رأس مال العبد أوقاته ، فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابها في الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي ﷺ : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** »[(١)] ، وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه أو تزجية الأوقات بحكاية أحوال لا فائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان ؛ فإهماله ذلك وتضييعه من الخسران .

الثانية : فضول الكلام:

وهو أيضًا مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكر بكلام مختصر ، ويمكنه أن يحبسه ويكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة ، فإن ذكر كلمتين فالثانية فضول - أي فضل عن الحاجة - وهو أيضًا مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر ، واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل المهم محصور في كتاب اللَّه تعالى ، قال اللَّه عز وجل : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾[(٢)] ، وقال ﷺ : « **طوبى لمن مسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله** ﴾[(٣)] ، فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان ، قال عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب اللَّه تعالى وسنة رسول اللَّه ﷺ أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو تنطق لحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتنكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه**

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الزهد حديث : ٢٤٢٠ .

(٢) النساء : ١١٤ .　　(٣) رواه الهيثمي في كتاب الزهد وقال : (رواه الطبراني) .

رقيب عتيد﴾[1] ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وقال ابن عمر : إن أحق ما طهر الرجل لسانه ، وفي الأثر : ما أوتي رجل شرًّا من فضل لسانه .

الثالثة : التقعر في الكلام:

عن ابن مسعود رضي اللّٰه عنه أن النبي ﷺ قال : « **هلك المتنطعون** » قالها ثلاثًا . رواه مسلم ، وهو التشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه ، فإنه من التكلف الممقوت ، إذ ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير إفراط ولا إغراب ، فلرشاقة اللفظ تأثير في ذلك .

الرابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان:

وهو مذموم ومنهي عنه ، ومصدره الخبث واللؤم ، قال ﷺ : « **إياكم والفحش فإن اللّٰه تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش** »[2] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء** »[3] ، وحد الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز والكناية ، وقال ابن عباس : إن اللّٰه حييٌّ كريم يعفو ويكني ، كنى باللمس عن الجماع ، فالمسيس والمس والدخول كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير ، وكل ما يستحى منه ، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة ، فإنه فحش ، والباعث على الفحش : إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب .

الخامسة : السخرية والاستهزاء:

قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله** »[4] .

حدثنا عبد اللّٰه ، حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى ، حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق

---

(١) ق : ١٨ . (٢) رواه أحمد في « مسنده » . (٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(٤) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة : حديث ٢٦٢٠ : ٧/٢٠٥ .

عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿**يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾[1]، قال: الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة: القهقهة بذلك[2] وهو محرم، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن**﴾[3]، ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء، ومرجع ذلك إلى استحقار غيره والضحك عليه والاستهانة به والاستصغار له، وعليه قوله تعالى: ﴿**عسى أن يكونوا خيرًا منهم**﴾ أي: لا تستحقره استصغارًا فلعله خيرًا منك، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح بمن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح، وإنما محرم استصغار ما يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على حفظه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته لعيب فيه، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها.

السادسة: الغيبة:

قد نص سبحانه على ذمها في كتابه الكريم وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضًا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه**﴾[4]، وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»[5]، الغيبة تتناول العرض، وقال ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته**»[6]، وعن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾[7]

---

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) رواه السيوطي في «الدر المنثور» عن ابن مردويه عن ابن عباس بلفظ (الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك): ٣/ ٢٢٦.

(٣) الحجرات: ١١.

(٤) الحجرات: ١٢.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه الهيثمي في كتاب الأدب، وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.

(٧) الهمزة: ١.

الهمزة : الطعان في الناس ، واللمزة : الذي يأكل لحوم الناس ، وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس ، وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك .

الأسباب الباعثة على الغيبة :

منها التشفي - وذلك إذا جرى غضب به عليه - فإنه إذا هاج غضبه فيتشفى بذكر مساوئه فسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثَمَّ دين وازع ، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدًا ثابتًا فيكون سببًا دائمًا لذكر المساوئ ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

(ومنها) موافقة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، وقد يغضب رفقاؤه فيضطر إلى أن يغضب لغضبهم إظهارًا للإسهام في السراء والضراء فيغوص معهم في ذكر العيوب والمساوئ .

(ومنها) إرادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره .

(ومنها) الحسد وهو أن يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلًا إليه إلا بالقدح فيه حتى يكفوا عن الثناء عليه وإكرامه ؛ لأنه يثقل عليه ذلك .

(ومنها) اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر غيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاباة والتعجب .

(ومنها) السخرية والاستهزاء استحقارًا له ، ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به .

وثمة أسباب غامضة فيها دسائس للشيطان ، وهي أن يذكر اسم إنسان في حالة التعجب أو الرحمة والغضب للّه تعالى ، فيقول مثلًا : تعجبت من فلان كيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ، فيكون تعجبه من المنكر لصدقه ، أو يقول : مسكين فلان غمني

أمره وما ابتلي به وهو صادق في الاغتمام، وكذا قد يغضب على منكر قارفه إنسان فيظهر غضبه ويذكر اسمه، والواجب في ذلك ستر اسمه وعدم إظهاره على غيره، ولا عذر في ذكر الاسم في ذلك.

بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة:

اعلم أن مساوئ الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وعلاج كف اللسان عن الغيبة إجمالًا أن يعلم أنه يتعرض لسخط اللّٰه تعالى إذا اغتاب لارتكابه ما نهى اللّٰه عنه، فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفًا من ذلك، وينفعه أيضًا أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيبًا اشتغل بعيب نفسه، ومهما وجد عيبًا فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك عيبًا يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمرًا خلقيًّا فالذم له ذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها، وإذا لم يجد العبد عيبًا في نفسه فليشكر اللّٰه تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه، وهو من أعظم الذنوب، وينفعه أيضًا أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه، وبالجملة فمن قوي إيمانه انكف عن الغيبة لسانه.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة:

اعلم أنه إذا لم يمكن التوصل إلى غرض صحيح في الشرع إلا بذكر مساوئ الغير فإنه يرخص فيه، وإلا أثم في أمور: (منها) التظلم، وذلك كمظلوم يرفع ظلامته على إنسان إلى أمير يستوفي له حقه لا يمكنه استيفاء حقه إلا بنسبته إلى الظلم، (ومنها) الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى طريق الصلاح، (ومنها) الاستفتاء كما يقول للمفتي: ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي إذا لم يفد الإبهام أو التعريض، (ومنها) تحذير المسلم من الشر كما إذا علمت من إنسان ضررًا فحذرت شخصًا منه، وكالمزكي يطعن في الشاهد إذا سئل عنه، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له يذكر ما أن يعرفه على قصد

النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة ، (ومنها) أن يكون الإنسان معروفًا بلقب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا حرج من ذكره لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورًا به . نعم إن وجد عنه معدلًا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال : للأعمش البصير عدولًا عن اسم النقص ، (ومنها) أن يكون مجاهرًا بالفسق متظاهرًا به ، ولا يكره أن يذكر به فلا غيبة له بما يتظاهر به .

السابعة : النميمة :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ **هماز مشاء بنميم** ﴾[1] ، وقال اللّٰه تعالى : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾[2] قيل : الهمزة : النّمام ، وقال تعالى : ﴿ **حمالة الحطب** ﴾[3] قيل : إنها نمّامة حمالة للحديث ، وقال ﷺ : « **لا يدخل الجنة نمّام** »[4] وحد النّميمة : هو كشف ما يكره كشفه سواء كان كرهه المنقول إليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو الإيماء ، سواء أكان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان عيبًا ونقصًا في المقول عنه أو لم يكن ، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود عليه .

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه ، أو إظهار الحب للمحكي له ، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل ، وكل من حملت إليه نميمة فيجب أن لا يسارع إلى ظن صدقه لقوله تعالى : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾[5] ، وأن ينهاه وينصح له ، وأن لا يظن بالغائب سوءًا ، وألّا يحمله ذلك على التجسس ، وقال الحسن : من نمَّ إليك نمَّ عليك - وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والإفساد بين الناس ، وهو ممن يسعى في قطع ما أمر اللّٰه به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، قال تعالى : ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق** ﴾[6] ، والنمام منهم ، وقيل لمحمد بن كعب القرظي : أي خصال المؤمن أوضع له ؟ فقال : كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل

---

(١) القلم : ١١ . (٢) الهمزة : ١ . (٣) المسد : ٤ .
(٤) رواه البخاري ومسلم . (٥) الحجرات : ٦ . (٦) الشورى : ٤٢ .

أحد ، وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك ؛ لأنه لم يقابلك بشتمك .

الثامنة : كلام ذي الوجهين:

قال تعالى : ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من اللّه وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان اللّه بما يعملون محيطًا** ﴾ [1] .

قال رسول اللّه ﷺ : « **وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه** » [2] ، وهو ذو اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه من الثناء عليه في معاداته وذمه الآخر ووعده بأن ينصره على خصمه وهو من علامات النفاق ، ونعم إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما ، وكان صادقًا فيه ، لم يكن ذا لسانين ولا منافقًا فإن الإنسان قد يصادق متعاديين ، وأما لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النمام ؛ لأن النمام ينقل من أحد الجانبين فقط وهذا يزيد النقل من الجانب الآخر ويريد أن يحسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه [3] .

الخـاتمـــــة :

وأخيرًا اعلم أيها الإنسان يا من أنت خلق من خلق الرحمن ، اعلم أن القلب واللسان ملكان ، فلا بد للملك من أنصار وأعوان ، فبدونهم لا يستقيم له شأن ولا يتم له عمران ، فالإنسان كل متكامل خلقه اللّه فأحسن صورته ، إنه الجسد الموحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، لذا يجب شكر المنعم بنعمته لهذا الخلق الإنساني .

ابن آدم إنك لن تستطيع أن تحصي نعم اللّه عليك ، لذا كيف تستطيع أن تشكر اللّه على نعمة وأنت تجهلها ؟ قال تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها** ﴾ [4] ، إذن يجب عليك أن تكثر من الشكر والتقرب من اللّه سبحانه وتعالى بالطاعات والبعد عن المنهيات ، وإن أقرب شيء إليك جسمك لو تأملت فيه وتفكرت في أعضائه وتراكيبه ﴿ **وفي أنفسكم**

---

(١) النساء : ١٠٨ .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) « موعظة المؤمنين في إحياء علوم الدين » للشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي صفحة ٢١١ - ٢٣٠ .
(٤) النحل : ١٨ .

أفلا تبصرون ﴾ [1] ، فما من عظم فيك ولا عرق ولا عصب إلا وعليه أثر صنع اللَّه عز وجل ، قال تعالى : **﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾** [2] وقال تعالى : **﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون ﴾** [3] ، وقال تعالى : **﴿ واللَّه أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾** [4] ، وقال تعالى : **﴿ ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين وهديناه النجدين ﴾** [5] .

هذه نعم ظاهرة يبينها اللَّه لك لتشكره عليها ، وما خفي كان أعظم ، عن النبي ﷺ أنه قال : « **كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة** » [6] - والسلامى هي العظم - وفي جسم ابن آدم ثلاثمائة وستون عظمًا يظهر منها مائتان وخمسة وستون عظمًا والباقي صغار لا تظهر ، والحديث يدل على أن تركيب هذه العظام وسلامتها من أعظم نعم اللَّه على عبده فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق بها عنه يوميًّا ليكون ذلك شكرًا لهذه النعمة ، ولما كان ذلك يستدعي صدقات كثيرة بعدد العظام ، فقد لا يستطيع العبد الوفاء بهذه الصدقات ، سهل اللَّه له طرق الخير وفتح له أبواب البر فجعل بكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر صدقة ، والعدل بين اثنين صدقة ، وإعانته الرجل في إركابه على دابته أو حمل متاعه عليها صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يمشيها لأداء الصلاة مع الجماعة صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، ويجزي من ذلك كله ركعتان من الضحى يركعهما ، وإنما كانت الركعتان مجزئتين عن ذلك كله ؛ لأن الصلاة استعمال للأعضاء كلها في الطاعة والعبادة فتكون كافية في الشكر على نعمة اللَّه بهذه الأعضاء ؛ لأن الصلاة تحتوي على الحمد والشكر والثناء على اللَّه [7] .

وهذه الأعمال التي أشار إليها النبي ﷺ في الحديث منها ما نفعه متعدد كالإصلاح بين

---

(1) الذاريات : ٢١ . (2) الانفطار : ٦ - ٨ . (3) الملك : ٢٣ . (4) النحل : ٧٨ .
(5) البلد : ٨ - ١٠ . (6) رواه البخاري ومسلم . (7) « خطب الفوزان » .

الناس وإعانة ذي الحاجة والكلمة الطيبة وإزالة الأذى عن الطريق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها ما نفعه قاصر على الفاعل كالتسبيح والتكبير والتحميد والتهليل والمشي إلى الصلاة وركعتي الضحى، وقد أرشد النبي ﷺ من لا يستطيع شيئًا من هذه العبادات أن يكف شره عن الناس، قال ﷺ: «**على كل مسلم صدقة**» قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**» قال: قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوفَ**» قال: قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف أو الخير**» قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «**يمسك عن الشر فإنها صدقة**»[1]، فهذا يدل على أنه يكفيه عن أداء تلك الصدقات اليومية على كل عضو فيه أن يمسك عن الشر بمعنى: ألا يفعل شيئًا من المعاصي، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤديًا للفرائض ومجتنبًا للمحرمات؛ لأن ترك الفرائض أو إرتكاب المحرمات من أعظم أنواع الشر.

أخي في اللَّه: ومن نعم اللَّه على العبد في جسمه إلباسه ثوب الصحة، قال أبو الدرداء رضي اللَّه عنه: الصحة غنى الجسم، وعن وهب بن منبه قال: مكتوب في حكمة آل داود: (العافية الملك الخفي)، وفي بعض الآثار: (كم من نعمة في عرق ساكن)، عن النبي ﷺ قال: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[2] وهذه النعم يسأل الإنسان عن شكرها يوم القيامة يطالب بها كما قال تعالى: ﴿**ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم**﴾[3]، قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: النعيم: الأمن والصحة، وعن ابن عباس رضي اللَّه عنهما في قوله تعالى: ﴿**ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم**﴾ قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل اللَّه العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى: ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا**﴾[4].

وفقني اللَّه وإياك لما يحب ويرضى إنه لقدير وبالإجابة لجدير.

وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

* * *

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ١١/١٩٦ في الرقاق، والترمذي رقم ٢٣٠٥ في الزهد.

(٣) التكاثر: ٨. (٤) الإسراء: ٣٦.

لكل رحلة محطة

فمحطتنا الأخيرة مع الأجوبة المسكتة

بين الحسن البصري وآخر:

شهد الحسن البصري جنازة فقال لصاحبه وهو يحاوره : أترى لو رجع للدنيا لعمل صالحًا ؟ فقال صاحبه : نعم نعم . فقال الحسن البصري : فإن لم يكن هو فكن أنت .

نكــاء غــلام:

لقي غلام أعرابي أبا العلاء المعري الشاعر المطبوع : فقال له : من الشيخ يكون ؟

قال أبو العلاء : أنا أبو العلاء المعري شاعركم المعروف . فقال الغلام : أهلًا بالشاعر الفحل ذي القول الجزل ، والرأي الفصل ، ءأنت القائل في شعرك :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل؟

قال أبو العلاء : نعم أنا القائل ولا فخر . فقال الغلام : قول طيب وثقة بالنفس واعتداد ، ولكن الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفًا للهجاء فهل لك أن تزيد عليها حرفًا واحدًا ؟ فسكت أبو العلاء وقال : واللّه ما عهدت لي سكوتًا كهذا السكوت .

بين المهلب بن أبي صفرة ومستفهم:

قال رجل للمهلب بن أبي صفرة : يا أبا المهلب بم أدركت ما أدركت ؟ فقال المهلب بن أبي صفرة : إنما أدركت ذلك بالعلم والعلم وحده . فقال الرجل : ولكني أرى غيرك وقد تعلم أكثر مما تعلمت ولم يدرك مثل شأوك وجليل شأنك . فقال المهلب : ذلك لأني إنما استعملت علمي ولم أحمله ، وغيري حمل علمه ولم يستعمله ، فكان مثله كمثل الحمار يحمل أسفارًا .

بين المنصور ومقترف:

جيء إلى المنصور برجل اقترف ذنبًا ، فقال له المنصور : يا رجل لقد اقترفت ذنبًا لا حيلة من القصاص عليه . قال الرجل : إنما الحيلة في يدك يا أمير المؤمنين ، وهي العفو إذا شئت . فقال الخليفة المنصور : إنما العفو من عند اللّه ، وأنا موكل بإقامة العدل في أرضه . قال

الرجل: أجل يا أمير المؤمنين، إن اللّه قد أمر بالعدل والإحسان، فإن أخذت في غيري بالعدل فخذ فيَّ بالإحسان.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة:

لما هم المنصور بالفتك بأبي مسلم فزع من هول الموقف عيسى بن موسى فكتب للمنصور يقول:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تدبر   فإن فساد الرأي أن تتعجلا

فأجابه المنصور:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأي أن تترددا
ولا تمهل الأعداء يومًا بغدوة   وبادرهمو أن يملكوا مثلها غدا

بين المأمون وأديب:

أقبل أحد الأدباء على المأمون وسأله حاجة، فرده الأمير ردًّا غير جميل، فقال له الأديب: إني أدخر لك شكرًا وثناء حرًّا، ومدحًا بكرًا يا أمير المؤمنين فأجاب المأمون: وهل مثلي يحتاج إلى مثل شكرك؟ فقال الأديب: أيها الأمير لا تحرك لسانك لتعجل به.

فلو كان يستغني عن الشكر   مالك لكثرة مال أو علو مكان
لما ندب اللّه العباد لشكره   وقال: اشكروني أيها الثقلان

دموع التماسيح:

بكت امرأة بين يدي الشعبي وقالت: إن زوجي يضارني؟ فقال الشعبي لزوجها: ألم تر إلى زوجك وهي تبكي بكاء مرًّا وتشتكي إلى اللّه واللّه يسمع تحاوركما؟ قال الزوج: لقد سمعت قول زوجتي وهي تشتكي إلى اللّه ثم إليك، وتبكي بين يديك بدموع حارة، ولكن اعلم أنها دموع التماسيح وبكاء إخوة يوسف إذ جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم ظالمون.

إن كان هو أسود فعمله أبيض:

مدح نصيب عبد اللّه بن جعفر - رضي اللّه عنه - فأجزل له العطية فحسده أحدهم وقال لابن جعفر: أمثل هذا الجزاء الأوفى لمثل هذا الأسود؟ فأجاب ابن جعفر - رضي اللّه عنه -: واللّه إن كان هو أسود فعمله أبيض، وإن كان عبدًا فثناؤه حر، ولقد استحق بما

قال أكثر مما أعطينا ، ووفى أكثر مما أجزينا ، وهل كافأناه إلا بثياب تبلى ومال يفنى ، ومطايا تنفق ، وبذل لنا هو مدحًا يروى وثناء يبقى .

لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي:

كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء يقول : إلى أبي الدرداء ، أما بعد ، فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي ، ولن تنال ما تؤمل إلا بالصبر على ما تكره ، فليكن كلامك ذكرًا ، وصمتك فكرًا ، ونظرك عبرًا ، فإن الدنيا تتقلب وبهجتها تتغير ، فلا تغتر بها ، وليكن بيتك المسجد ، والسلام . فأجاب أبو الدرداء يقول : أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى اللّٰه وأن تأخذ من صحتك لمرضك ، ومن شبابك لهرمك ، ومن فراغك لشغلك ، ومن حياتك لموتك ، ومن جفائك لمودتك ، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين إما في الجنة وإما في النار فإنك لا تدري إلى أيهما تصير ؟

بين أبي الأسود الدؤلي وأعرابي:

أقبل أحد الأعراب على أبي الأسود الدؤلي وهو يأكل فسلم عليه . فرد التحية ولم يدعه معه . فحاول الأعرابي أن يجتذب عطفه إليه فقال له : أما إني قد مررت بأهلك . فقال له أبو الأسود الدؤلي : كذلك كان طريقك . فقال الأعرابي : وامرأتك حبلى . قال أبو الأسود : كذلك عهدي بها . فقال الأعرابي : وولدت غلامين توأمين . قال أبو الأسود : كذلك كانت أمها . فقال الأعرابي : ومات أحدهما . قال أبو الأسود : وما كانت لتقوى على إرضاع اثنين . فقال الأعرابي : ثم مات الثاني . قال أبو الأسود : وما كان ليبقى بعد موت أخيه . فقال الأعرابي : ثم ماتت الأم . قال أبو الأسود : حزنًا على ولديها . فقال الأعرابي : ما أطيب طعامك الذي أراه بعيني ولم أتذوقه بفمي . قال أبو الأسود : لأجل ذلك أكلته وحدي .

بين عمر بن الخطاب وأحد الأسرى:

دعا عمر بن الخطاب – رضي اللّٰه عنه – أحد الأسرى إلى الإسلام فأبى فأمر بإعدامه ، ولما دنت ساعة التنفيذ قال الأسير : واللّٰه لو أمرت لي يا أمير المؤمنين بشربة ماء فهو خير لك عند اللّٰه من قتلي على ظمأ ، فأمر له بها ، ولما وصل الماء إلى يده قال : أنا آمن حتى أشرب يا أمير المؤمنين . فقال عمر – رضي اللّٰه عنه – ونحن قد أمناك حتى تشرب ، فألقى الأسير

الماء من يده وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج : فقال عمر : ونحن موفون بما عاهدناك عليه ، وأمر بإرجاء تنفيذ الإعداء حتى يقضي في أمره . وعند ذلك قال الأسير : الآن أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله . فقال عمر - رضي اللّه عنه - : ويحك أسلمت خير إسلام فما أخرك ؟ قال الأسير : واللّه يا أمير المؤمنين لقد خشيت أن يقال : إن إسلامي إنما كان جزعًا من الموت ففزعت إلى هذه الحيلة ليكون خالصًا للّه .

ما أطول لسانك وأقنع جوابك .

قال الحجاج للشعبي وقد دخل عليه : كم عطاءك يا شعبي ؟ فقال الشعبي : ألفين يا أمير المؤمنين . قال الحجاج : ويحك كم عطاؤك ؟ فقال الشعبي : ألفان يا أمير المؤمنين . قال الحجاج : فلم لحنت لأول مرة فيما لا يلحن فيه مثلك ؟ فقلت : (ألفين) ؟ فقال الشعبي : لحن الأمير فلحنت ، وأعرب فأعربت ، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له بلحنه والمستطيل عليه بفضل القول قبله .

بين الحجاج بن يوسف وأربعة ألسن:

سأل الحجاج بن يوسف الحسن البصري عن القضاء والقدر ؟ فقال : واللّه ما أعرف إلا ما قال أمير المؤمنين : أتظن أن الذي نهاك دهاك ، إنما دهاك أسفلك وأعلاك ، وربك بريء من ذاك . فسأل واصل بن عطاء ؟ فقال : واللّه لا أعرف فيه إلا ما قال أمير المؤمنين : إذا كانت المعصية حتمًا فالعقوبة عليها ظلمًا . فسأل عامر الشعبي ؟ فقال : واللّه لا أعرف فيه إلا ما قال أمير المؤمنين : ما حمدت اللّه عليه فهو منه ، وما استغفرت اللّه منه فهو منك . فسأل عمرو بن عبيد ؟ فقال : واللّه ما أعرف فيه إلا ما قال أمير المؤمنين ، أتظن أن الذي فسح عليك الطريق لزم عليك المضيف ؟ فلما سمع الحجاج هذه الأجوبة المسكتة الأربعة قال : واللّه لقد أخذوا من عين صافية .

بين عمر بن عبد العزيز وغلام حجازي:

لما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة هرعت إليه الوفود من كل مكان تهنئه ، وكان من بينها وفد أهل الحجاز ، فهم من بين الوفد غلام للكلام فقال له عمر : يا غلام ليتقدم ويتكلم من هو أسن منك . فقال الغلام : يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح اللّه عبده لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد أحسن له الاختيار ، ولو أن الأمر بالسن لكان في

مجلسك هذا من هو أحق به منك . فأجاب عمر : صدقت يا غلام فتكلم . فقال الغلام : أيها الأمير إنما نحن وفد التهنئة لا وفد الملق ولا وفد الترزئة ، ولم نتقدم إليك رغبة فيك ، ولا رهبة منك لأنا أمنا في أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا وحققنا ما إليه سعينا .

بين الجاحظ وسعيد بن عبد العزيز:

قال أبو تمام : تناقشنا في مجلس سعيد بن عبد العزيز في فضل الكلام وفضل الصمت ، فقال أحد المتناقشين : إن الصمت زين وفضيلة من فضائل الرجال ، وكثرة الكلام دليل الطيش وضعف الرأي . فقال سعيد بن عبد العزيز : يا هذا إنك إنما تمدح الصمت بالكلام ولا تمدح الكلام بالصمت. وقال الجاحظ : كيف تقولون : إن الصمت أنفع من الكلام ، وفائدة الصمت لا تتجاوز صاحبها ، وفائدة الكلام تعمُّ وتخصُّ ، والرواة لم ترد سكوت الصامتين كما روت كلام الناظمين والناشرين ، وقد أرسل اللّٰه تعالى أنبياءه بالكلام ولم يرسلهم بالصمت ، ومواضع الصمت المحمودة قليلة ، ومواطن الكلام المحمودة كثيرة ، وبطول الصمت يفسد البيان ، ومحادثة الرجال ومناقشتهم تلقيح لألبابهم .

المـرء بأصغريــه :

دخل حمزة على المنذر وهو صاحب عرش وكان ذا رأي وعقل وكان دميمًا فاحتقره المنذر وازدراه لا لشيء غير دمامته ، وقال له : يا حمزة ، واللّٰه لتسمع بالمعيدي خير من أن تراه . فأجاب حمزة بن حمزة : أيها الملك ، إنما المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه ، فإذا نطق ببيان ، وإذا قاتل قاتل بجنان ، والرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالقبان ، فسكت المنذر ، بل ارتج عليه .

* * *

المراجع

(١) «نظرت في القرآن» للأستاذ محمد الغزالي .

(٢) «الإنسان في العالم الحديث» لجوليان هكسلي ترجمة حسن خطاب صفحة ٢٢٤ .

(٣) «الإيمان والحياة» : د : يوسف القرضاوي صفحة ٦٣ - ٨٢ بتصرف .

(٤) كتاب «الفوائد» ٢٧ و ٦٤ و ١٦٨ و ١٦٩ للإمام ابن قيم الجوزية .

(٥) «مفاهيم ينبغي أن تصحح» صفحة ١٢٧ و ٣٠٠ - ٣٢٣ .

(٦) «مبادئ علم الاجتماع» للصف الثالث ثانوي قسم العلوم الشرعية والدينية . د . مصطفى محمد حسين . د . إبراهيم لبيب أحمد . د . سعيد محمود . مراجعة وتعديل علي سعيد وعبد اللّه عبد العزيز السلمان وعبد اللّه محمد منصور . طبع في عام ١٤١٤ صفحة ٣٥ - ٣٦ .

(٧) «التفسير» لابن كثير : ٥٨٦/٢ ، ٤١٤/٣ .

(٨) «إحياء العلوم» : ٣/٣ للإمام أبي حامد الغزالي .

(٩) «فتح الباري» : ١٧٥/١ لابن حجر العسقلاني .

(١٠) «تربية الأولاد في الإسلام» : ٣٦٥/١ - ٣٨٠ لعبد اللّه ناصح علوان .

(١١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن قيم الجوزية : ٥ - ٤٥ .

(١٢) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي صفحة ١٤١ - ٢٨٣ و ٢١١ - ٢٣٠ .

(١٣) «أمراض القلوب وشفاؤها» لعبد اللّه الجار اللّه .

(١٤) «الصمت وحفظ اللسان» صفحة ٣٥ - ٤٥ بتصرف للحافظ أبي بكر ابن أبي الدنيا .

(١٥) كتاب «الخطب» للدكتور الفوزان .

* * *

فهرس الموضوعات

* * *